رواية

تماثيل معذبة

الجنس : روايـــة
المؤلف : ختام الميالي، مهدي المبدر، هدى حسين وشيماء نجم عبدالله
القياس : ١٤ × ٢١ سم
عدد الصفحات : (١٢٠)
عدد النسخ : (١٠٠) نسخة
الطبعة الأولى : لسنة ٢٠٢٠
لوحة الغلاف : الرسامة إسراء سامي
التصميم : رياض جواد كشكول
الناشِر : دار المثقف للطباعة والنشر / بغداد/
الكرادة داخل / شارع العطار / هاتف ٠٠٩٦٤٧٧٣٩١٧٤٧٣٦

رقم التسجيل الدولي (ردمك) (**ISBN 978-9922-9414-1-7**)

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقل بأيّ وسيلة من الوسائل التصويرية أو الإلكترونية أو الميكانيكية ، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطّي من المؤلف ودار النشر .

All rights reserved. No part of this Publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any means: electronic, mechanical, photo copying, recording or otherwise, without the prior permission, in writing, of the Author.

ختام الميالي شيماء نجم عبد الله
هدى حسين مهدي المبدر

تراتيل معذبة

مراجعة

د. عبدالله الغانم

لوحة الرسامة

إسراء سامي

تنظيم

منير الكلداني

الإهداء

إلى حملة أغصان السلام الذين خلقوا إلى

ملكوت الرب تحفهم صلوات المصلين .. شهداء

كنيسة سيدة النجاة .. شهداء العراق.

المقدمة

تراتيل معذبة رواية تختصر أحداث بلد بكل ما فيه من معاناة وألم وقسوة، رواية خاض أبطالها الحقيقيون صراعات جسيمة في ذلك النهار الذي شهد إحدى جرائم الإبادة التي لم تعد تحصى في بلدي...

حيث حوصرت تلك الكنيسة الخالية من كل سلاح ((سيدة النجاة)) لتلتهمها النيران بكل من فيها ويذهب الأبرياء إلى ملكوتهم الأعلى حاملين أغصان السلام.

رواية اجتمع كتابها الأربعة باختلاف أذواقهم ليجسدوا تلك الملحمة الإنسانية المصيرية بكل طاقات إبداعهم فتجلت في أقلامهم تلك الفجيعة بصورة لا تكاد تلمسها لو كتبت من قبل كاتب واحد لأنها مثلت كل المشاعر بكل ما في زخمها وقوتها وخوفها وترددها واستبسالها ليشرق لنا عمل فني يضيء سماء الرواية الحديثة من حيث قوة السبك والربط بين الأحداث رغم اختلاف الأساليب وتنوع التصوير.

لقد خاض كتاب رواية تراتيل معذبة تلك التجربة بجميع تفاصيلها وكأنهم كانوا وسط تلك الفاجعة فتقمصوا تلكم الأدوار بعاطفة الكاتب الأريب وخيال الأديب اللبيب.

لقد كتبوا العراق ومآسيه في كنيسة سيدة النجاة واختصروا حال بلد في سطور ليرسلوا رسالة إلى العالم بأن السلام لا بد أن يحل وإنه مهما كثرت غربان الظلام فان النصر سيكون لحمائم السلام.

لقد كتبوا كل العراق بكل أطيافه بكل مكوناته واتجاهاته ليقولوا بصوت واحد ((إن العراق هو بلد السلام ولا مكان فيه لكل دخيل وتحت أي مسمى))

تراتيل معذبة: هي تراتيل عزفت بشجن وعلى القارئ أن يسمع ذلك الشجن بكل ما فيه من مشاعر حب للسلام.

منير بطرس الكلداني

ملاحظة:

إن الشخصيات الواردة في الرواية هي ليست حقيقية وإنما من صنع خيال كتابها.

الفصل الأول

المشهد الأول

الماهية سارة

قرابة الساعة الثالثة والنصف من صباح يوم السبت استيقظت كعادتي، رحتُ أتأمل سقف قلايتي قليلاً مستذكرة الرب يسوع وأم النور أمنا مريم العذراء، بعد انتهاء تلك اللحظات التأملية القليلة نهضت لترتيب غرفة النوم قبل نزولي إلى الدير، وأنا أقف ممسكة بثوب الرهبنة تزاحمت على رأسي ذكريات من الماضي، بعد أن لاقيت الرفض الكبير من عائلتي التي كانت تريد أن تراني في أعلى مستويات العلم، إلا إن قلبي كان يريد عكس ما يريدون، حب الرب يسوع و الإقتداء بأمنا مريم كان من أكثر ما يجعلني أن أسلك طريق الراهبات، الذي في نهاية الأمر جعلهم يوافقون، بحثت حينها عن الكنيسة التي ستكون مقري الدائم وداري الأبدية، لم يكن بالأمر السهل على الكنيسة أو حتى عليّ، فالابتعاد عن كل ملذات الدنيا ومفاتنها وما تحمله من مفاجآت سعيدة وأفراح أمر صعب على فتاة بعمري، في حينها بقيت تحت الاختبار لفترة طويلة من الصبر والتأني والعيش مع مَنْ سلكْنَ هذا الطريق أيضاً، إلا إنَّ في نهاية الأمر جاء ما كنت أنتظره بكل لهفة وشوق كبيرين، يوم قبولي كطالبة راهبة، أقاموا صلاة من أجل القسم وصلاة "الموتى" وأخذ العهود كما قام متولو الكنيسة بقص شعرنا؛ لأننا لم نعد بحاجة لهذه الزينة، إنها اللحظة الأحب على قلبي والأسعد، لحظة ارتداء ملابس الراهبة من قلنسوة وجلباب أسود بدلاً من الزي الرمادي الذي أعطوه لي في مرحلة الاختبار، منذ ذلك اليوم وأنا لم أخرج من الكنيسة إلا لعمل أُكَلَّف به من قِبَل الرئيسة، بعد غطسة سريعة في ذكريات الماضي، استيقظت وأنا مسرعة لارتداء ما بين يديّ، خرجتُ، بخطوات هادئة اجتزت

الممر الفاصل بين قلايات الراهبات والكنيسة، وقفت أمام بابِها المفتوح الذي يشبه ذراعيّ يسوع لأستنشق عبير الحياة الممتزج بالطهر بحضرة الرب والأم المقدسة، وأنا أخطو خطواتي نحوها للدخول شعرت بروحي حلقت بجناح ملاك عاشق لتطوف الكنيسة ثم تدخلها قبلي لتنتظرني وأنا أطير خلفها والسعادة تجتاحني، أمام المذبح وقفت لأصلي صلاتي بكل خشوع:

-بأسم الأب والابن والروح القدس الإله الواحد آمين.

أوقدت الشموع وتلّوتُ دعوات نابعة من قلب نابض بالمحبة:

- أيها الرب يسوع رب النور يا من جعلت من الخبز جسدك، والخمر دمك خلصنا من كل العابثين والعائثين والقاتلين للروح الإنسانية آمين.

سرّت رعشة غريبة في جسدي، شيء ما انتابني، إلا إن الترتيلات والتسبيحات محت ما اختلجني، وأنا أعمل ما علي من عمل تذكرت أنه يوم إطعام المحتاجين وكما إنه قد أوصتني أم حسين زوجة الشهيد والأم لثلاثة أيتام ببعض الملابس والطعام، تفتحت الشمس لتشرق وتطل أشعتها على المذبح من نوافذ الكنيسة، صوت وقع أقدام من خلفي أشعرني بتردد تلك الخطوات أنها تتقدم مرة وتتراجع مرة أخرى، استدرت لأرى من خلفي وإذا بها فتاة بعمر يقارب السادسة والعشرين، ترتدي جلباباً أسود مع ربطة رأس، عينيها تشعان بالرجاء رغم الخوف الذي كانت تفاصيلهما ممتلئة به، سألتها بإبتسامة محبة:

- بماذا أساعدكِ يا أبنتي؟

– يا أختي أنا واعدت مجموعة من الأصدقاء بجلبهم معي إلى الكنيسة لكي يتعرفوا على المسيحيين وثقافتهم ومدى المحبة التي يتميزون بها، وجئت اليوم لتزيدينني معرفة بالكنيسة وكل شيء عنها كي تكون لدي معلومات أكثر أقولها لهم.. فهلّا ساعدتني بذلك.

– أهلاً وسهلاً بكم متى ما جئتم، يسعدني ذلك بالتأكيد سأخبركِ عن كل ما تريدين معرفته وتعلمه.

أخذتها في جولة بكل أنحاء الكنيسة، من المذبح إلى الرسوم التي نقشت على جدرانها من الطفل المجنح ويسوع في منتصفهم إلى المكتبة التي يتزودون منها الكتب التي يحتاجونها، ومجلس الكهنة للدراسة كذلك مجلس الإعتراف.

الفصل الأول

المشهد الثاني

بلسم زوجة

أبي قتادة

يا له من مكان، يملأ القلب بالطمأنينة والخشوع، الجرس الذي علق بإتقان يدق لأجل الصلاة، البناء و تقاطيعه الخطوط كلها تجذبني لتفقد المكان من الداخل، دخولي لم يكن بالصعب ها أنا أتخطى عتبة باب الكنيسة، إنه لا يقل شأناً عن مظهرها الخارجي الرسوم طبعت على الجدران بتقنية تجعلك تعيش في عالم آخر، الكراسي صفت بالتساوي ليس هناك من كبير ولا صغير، البيانو يعزف نوتاته بدون أن يتواجد العازف، أشعر بكل شيء حولي لكن كفاني تأملاً، فأنا هنا لأقوم بواجبي، يجب أن أجد منفذاً آخر غير الذي دخلت منه، وفي أثناء دوامة التفكير التي كنت فيها لامستني يدٌ بيضاء رقيقة، شعرت بالقشعريرة رفعت رأسي، وجدت وجهاً يبعث في نفسي الرغبة في التأمل دون توقف:

- **هل يمكنني أن أساعدك؟**
- **نعم بالطبع _ يمكنك_ ولكني _ في الحقيقة_ كنت أتساءل: هل يمكنني أن أجلب في يوم القداس أصدقاء لي يرغبون في البحث في تراث هذه الكنيسة، وتوثيق جميع تفاصيلها؟**
- **بكل سرور، يسعدنا ذلك.**
- **أريد أن اطلّع على الكنيسة قبل أن اجلبهم ليسهل علي شرح تفاصيلها لهم.**
- **تفضلي سأطلّعكِ على كل شيء ترغبين فيه.**

ما هذا تمكنت بسهولة من إقناعها، أمسكت بيدي وأخذت ترشدني وتريني كل ما من شأنه أن يمثل تاريخاً لهذه الكنيسة من رسوم الطفل المجنح والأجراس والمكتبة التي ينتقون منها تعاليمهم والأبواب التي تؤدي إلى المذبح ومجلس الكهنة للدراسة ومجلس من يرغب بالتقرب إلى الله، حتى

اشدت الرغبة عندي بالجلوس أيضاً والاعتراف، يجب علي أن أتخلص من الدوامة التي أنا فيها، جلست لأستريح على الكراسي المصفوفة جنب بعض لتخبرني عن سبب صفها وها هي تعاود شرح كل جزء منها حتى أوقفتها قائلةً:

- ستخبرينني عنها يوم قدومهم عندها لن نأخذ منك الوقت الكثير فالجلوس هنا مريح جداً.
- شكراً لك نحن بانتظار مقدمكم.

خرجت من الكنيسة، بخطوات متثاقلة الأفكار تصارعني وقدماي لا تحملاني، من هؤلاء البشر الذين نحاول التقرب منهم؟ ولماذا هم هكذا؟ لماذا لا نملك مكاناً لنا كما هم يملكون؟ من نحن؟ كل الأماكن التي زرتها كانت تبعث على الهدوء والطمأنينة إلا مكاننا ومجلسنا فهو لا يبعث سوى الموت والعذاب، إنّه يقترب وأنا اقترب خطواتنا تتلاقى:

- أراك شاحبة، هل كان الدخول إليها صعبا؟
- لا شيء فقط شعرت بالتعب، أبواب الكنيسة مفتوحة للجميع لن تجد من يصدك.
- اشعر من خلال نبرة صوتك الخوف من المكان، هل إن رسوم الكفار أو لبساهم الخادع، من جعل الخوف يدخل إلى قلبك؟.
- لا لا اطمئن فالخوف لا يعرف طريقه إلى قلبي، هذا هو المخطط الكامل للكنيسة، فلم أجد في طريقي اليوم سوى كافرة واحدة وتمكنت من خداعها بسهولة.
- أحسنت إن نجحنا في مهمتنا سنتمكن من السيطرة على الكنائس والمراقد الأخرى.

وضعت البرقع الأسود على وجهي وأكملت مسيري نحو البيت الذي استولينا عليه، كان بيتاً فخماً لا يحتوي على الكثير من الأثاث، لكنه كان مليئاً بالصناديق المبعثرة هنا وهناك يجعل منها قتادة وجماعته وسيلة لتخبئة أسلحتهم، وفي الوقت ذاته كانوا يغطونها بالفرش والشراشف لتكون كمجلس لهم، جلست على أحدها كي أستريح وإذا بأطفال قتادة يحومون حولي كطيور مهاجرة.

نعم.. هم مهاجرون، فأمهم قد قُتِلَتْ بسبب قساوة الحياة، خلعت الحجاب من على رأسي وخلعت الرداء الأسود الذي كانت تتشح به أغلب نسائنا، أخذت أداعبهم وأحدّث نفسي بأن الحياة لكي نعيشها يجب أن نحصل عليها بأنفسنا، فمن حقنا أن نعيش، لكن لن يتحقق كل هذا إلا بالتخلص من كل الذين يقفون بوجهنا.

همس في أذني أوسطهم:

- أراك تكلمين نفسك يا أماه؟
- نعم يا أمي، وأنا أيضاً أسمع صوتك، هل تخاطبيننا؟
- كنت أتمنى أن أخاطبكم، ولكن هل ستفهمون؟
- نسمعك، وإن فهمنا نكون معك. قالها كبيرهم وهو يحاول لف الوشاح حول رأسه كما يلفه والده أبو قتادة.

رمقته بنظرة خوف؛ لتشابه صفاته من والده، فالشر يتطاير من بين عينيه رغم صغر سنه.

- لا.. مازلتم صغاراً ولن تفهموا كلماتي، عندما يحين الوقت سأخبركم عندها.

اقترب ظله، تسارعت خطواته، خلع لفافة رأسه وجلس يخاطبني:

- إحفظي هذه الخريطة؛ لأنك ستكونين أول الداخلين.
- لا أحتاج لذلك، غدا سأعاود الذهاب إلى هناك.

غلق الباب وهو يجر بقدميه كما يجر الحمار العربة، مرَّ الوقت ببطء حتى أسدلت السماء بستائرها المظلمة، كان موعد ذهابي للاستطلاع مرة أخرى، طلب مني ارتداء ملابس غير التي اعتدت عليها، ركبت السيارة وهو يقودها كالمجنون اقتربنا من مقصدنا، منظرها أجمل رغم الظلام الذي يتوعدها، صوت الأجراس وهي تُقرع تدقُ في قلبي وتزيد من صراع ذاتي، ترجلت من السيارة واقتربت من الباب. وجدت الكثير من البشر جالسين بجنب بعض، بحثت عن مكان لي استقر فيه وأتابع من خلاله مجريات القداس، وجدت مكاناً خالياً في آخر الصفوف المتراصة سرت مسرعة نحوه قبل أن يجلس فيه غيري، كان مكان مميزاً، جلستُ أستمع وأتابع الجالسين وهم خاشعون بكل جوارحهم لكلام رجل الدين إلا واحدة أراها مختلفة عنهم، كانت تجلس بجانبي، ازداد الفضول لديَّ لأسألها:

- شكلك الخارجي لا يشبه الآخرين؟

قهقهت بخجل خافية ابتسامتها بكف يدها:

- أنا مسلمة وأتيت هناك لأكتب سبقاً صحفياً عن المكان.
- آه أنا أيضا في الحقيقة، ولكني لدي ضيوفاً أجلبهم لكي يشاهدوا بأم أعينهم.
- إذا نحن على الهدف ذاته، أعرفك بنفسي، أنا عائشة، وهذا ابني علي وهـــــذه صديقتي نورا.

اغرورقت عيناي بالدموع:

أنا ليس لي أولاد ولكني أربي أولاد زوجي.

الفصل الأول

المشهد الثالث

الصحفية عائشة

- انتظري ربما لن يسمح لنا بالدخول ياعائشة.

- ولمَ لا يسمح لنا بذلك؟ نحن هنا من أجل العمل.

- حسنًا كما تشائين.

- لا تقلقي، هوني عليكِ، أُنظري إلى علي يبدو متحمساً أكثر منكِ.

- شيءٌ مؤكد؛ فبالنهاية أنتِ أمّه.

تمكنت من الدخول أنا وصديقتي نور بعد أن تَبدَّدتْ مخاوفها متأثرةً بحديثي عن المسيح، كيف وبهم أناس محبون؟ أناس يمتلكون قلوبًا طيبة، متسامحة، إن لم نكن أنا وهي من يغرس بذور الثقة والإحترام والتعايش مع الآخر بسلام، فمَنْ سيفعل إذاً؟

وما أن دخلنا حتى غمرتنا السكينة، معالم الألوهيَّة تجلت بكل شيء، نظرت مشدوهةً بجمال المكان، قد غصَ بجمعٍ من الرهبان، منهم من كان يحمل الشمعدان قرب المذبح، وعلى الجانب الآخر يقف آخرون لقرع الأجراس التي يكاد رنينها أن يثير الخشوع في الأرواح، تراها تراصفت استعدادًا لإقامة الطقوس اليومية بتراتيل الإبتهال، وسط هذا الخشوع الإيماني ينساق إلى الأنفاس عبق العود والبخور ليريح الأبدان الضامرة، والبعض تركوا منازلهم ولجئوا إلى شفاء أرواحهم بالتبريكات وتلاهم ممن علقوا أمنياتهم بذراعي القديسة مريم العذراء.

بين رغبتي بالاحتفاظ بهذه اللحظة الرهبانِية وبين مقصدي فتشتُ بعيني عن مسؤول هذا الدير، أمسكت بي نور قائلةً:

- عائشة، سوف أُرافقكِ في المرة القادمة.

- أرى أنك قد أحببتِ الدير!

تكلم عَلي مقاطعًا حديثي:

- أمي، وأنا أريد القدوم معكِ أيضاً.

- إذاً، لنجد أحدهم أولاً، ها قد وجدته.

رأيتها من بُعد تساعد الحاضرين فيما يحتاجون إليه، وتدلهم إلى حيث يمكنهم الجلوس بوجهٍ تغمره السماحة، وبابتسامةٍ دافئةٍ تكاد تطغى على محياها، بيضاء البشرة وقصيرة القامة ولكن لباسها قد زين هيأتها.

ذهبت نحوها قائلةً:

- مرحبًا أختاه، عذرًا هل بالإمكان أن آخذ من وقتكِ ولو القليل؟.

- آه أهلاً، تفضلي بماذا أخدمكِ؟.

- شكرًا، دعيني أعرفكِ بنفسي أولًا.

أنا عائشة، صحفية في إحدى القنوات الفضائية، وهذه صديقتي نور وابني علي.

- أهلاً وسهلا بكم.

وضعت يدها على رأس ابني قائلةً:

- طفلكِ جميل فليباركه الرب.

- شكرًا لكِ.

- بماذا أساعدك ِ؟.

- أتيت من أجل عملٍ صحفي عن "طبيعة التعايش السلمي بين الأديان" وحرصت أن تكون المسيحية أولها؛ نظراً لكونها تمثل ثاني الأديان انتشاراً في البلاد العربية عامةً لا سيما في العراق، لذا أردت أن أحصل على الموافقة من الدير ثم أباشر بالعمل معكم.

- يسعدنا ذلك، مرحبًا بكِ في أي وقت.

- إذاً هلا أوصلتيني إلى قس هذه الكنسية.

- لا أعتقد أني أستطيع ذلك، هل يمكنكم الإنتظار هناك قليلاً؟، سوف تبدأ المراسم الآن، وسأوصل طلبكِ هذا إليه وستلتقين به شخصيًا عندما ننتهي.

- حسنًا لا بأس سوف ننتظر إذًا.

- إذاً، يمكنكِ الإنتظار والجلوس على تلك المقاعد.

- حسنًا، شكرًا لكِ.

- على الرحب والسعة.

توجهتُ أنا ونور وابني علي، نحو المقاعد التي أشارت إليها الراهبة وجلسنا نرتقب الحضور، في كل ثانية يزداد عددهم إلى أن جلست بجانبي امرأة شاحبة الملامح، نظراتُها ممتلئة بالقسوة، بشرتُها حنطية ويبدو أن الحياة قد أطفأت نور سماها، لم تكن منهم بالتأكيد لأنها ترتدي العباءة الإسلامية، لا يبدو أنها على ما يرام، في البدء حاولت تجنبها وما أن بادرت بالحديث معي استلطفتها علمتُ منها أنها جاءت من أجل أناس لهم الغرض ذاته الذي جئتُ من أجله، واسمها بلسم أم لثلاثة أطفال.

في الحقيقة ذَكرت بشيء من الحرقة أنها ليست والدتهم، هذا ما دفع بي للتقرب منها ومعرفة أحوالها، أخبرتني بأنها تعاني من سوء معاملة زوجها رغم أنها تعتني بأبنائه جيداً وتحرص على راحتهم، ومن بين ما قد ذكرته لي رغبتها بتوفر حياة جيدة لأطفالها بعيداً عن الحياة التي تعيشها.

أثارت شفقتي وفطرت قلبي عزمتُ أن أقف إلى جانبها وأن أساندها قدر المستطاع، طال حديثنا إلى أن انتهت المراسم وبدأ البعض بالخروج رويداً رويداً والبعض الآخر يلتمس الغفران والإعتراف بالخطأ، من بين هذا الحشد لمحتُ قدوم سارة عرفتُ اسمها من بلسم ومعها رئيس الدير.

- أرجو أنني لم أجعلكم تنتظرون طويلاً.

أجبتها:

- لا بأس سارة هذا عملكِ.

- يباركم الرب، أعرفكم بمسؤول هذا الدير.

ما أن تم التعارف حتى شرحتُ لهم سبب قدومنا إلى هنا، سعادة القس باتت واضحة على تقاسيم وجهه حتى أنه أعلن تقديم الدعم والمساندة خلال عملنا، كما وأنه شرعَ ببعض المناقشات المتعلقة بتاريخ المسيحية والكنائس لغرض تزويدنا بالبنى الأساسية، بعد ذلك تمكنت من الحصول على موعدٍ لإجراء العمل وتقرر أن يكون غدًا في الساعة الخامسة عصرًا، مقاطعة حديثنا قالت نور هامسةً:

- عائشة ألا ترين أن الوقت قد تأخر، انظري إلى علي لقد غفا بين ذراعي بينما كنت تتحدثين.

- آه لقد انتهينا كما تعلمين؟ تحملي قليلاً.

- حسنًا لكن أسرعي.

لم يكن باستطاعتي أن أطيل أكثر؛ نور قد شعرت بالتعب، وكذلك ابني قد غلبه النعاس استسمحت عذراً للمغادرة تاركةً بلسم ورائي تواصل الحديث معهم.

- شكرًا على منحنا هذا الوقت الثمين رغم انشغالكم، سعيدة بالتعرف عليكم، لنا لقاءٌ آخر غداً إن شاء الله.

- نتشرف بكم في أيّ وقت، يحفظكم الرب.

خرجت وأنا أحمل علياً النائم في حضني، ونور لم تنفك عن الحديث مما رأت هناك، ركبنا السيارة ذاتها وفي منتصف الطريق أوقفتنا إحدى دوريات الجيش لغرض التفتيش، ثلاثة منهم قاموا بفحص السيارة استمروا لدقائق، ما أن انتهوا حتى أقبل رجل طويل القامة بخطوات رشيقة انبساطي الشخصية، يبدو بأنه مسؤول هذه الفرقة فما أن انخرط بينهم حتى أظهر الجند له الإحترام، ناداه أحدهم (حضرة الرائد باسل)، أشار بأصبعه اتجاهنا تمتم معه ببعض الكلمات وتقدم نحو سائق السيارة قائلًا:

- نعتذر عن إيقافكم بهذا الوقت.

رد السائق مازحًا معه.

- لقد أعتدنا على ذلك حضرة الرائد.

- أذاً، رافقتكم السلامة.

الفصل الأول

المشهد الرابع

الرائد باسل

لم أحتمل رائحة الطعام الشهية، الجوع يطرق أبواب معدتي، اتبعت مصدر الرائحة، أنا اقترب والرائحة تقترب حتى وصلت إلى باب منزلي نعم إنّه منزلي، كم أنا متشوق إليه! لن أطرق الباب، سأفاجئهم بقدومي، فهم أيضاً قد افتقدوا وجودي معهم؛ فقرابة أسبوعين لم أرهم، يا ترى كيف سأحمل أولادي وأنا اشعر بتعب شديد؟

لا يهم فهم سيقفزون على كتفي ولن اشعر بثقل أوزانهم، فهم كحمامتين حانيتين على كتفي مربيها، فتحت الباب برفق، لم أصدر أي صوت، وبينما أحاول الإقتراب من الباب الداخلي لم اشعر إلا ورشة ماء جاءت على رأسي، التفت يسارا وجدت أطفالي يمسكون بالبخاخ ويرشقوني به:

– الناس تبحث عن الماء وأنا أُرشق به.

هرولت نحوهم لكي امسك بهم واحتضنهم لكنهم ملأوا المكان بالصراخ، هم يهرولون ويتمازحون وأنا وراءهم حتى ارتطمنا جميعنا بسيدة منزلي، نعم إنها هي، حوطتهم جميعاً بكلتا ذراعي، الضحكات والقبل التي تبادلناها كانت تنسيني كل اللحظات السيئة التي مررت فيها أثناء واجبي، جلست افترش الأرض والمائدة تتلون أمامي بأشهى الأكلات، والأولاد حولي وزوجتي تبتسم قبالتي، أحسست أني في الجنة لكني قاطعت هذه الإبتسامات بأحاديثي عن الواجبات وعن العمل المرهق الذي قضيت طيلة فترة غيابي فيه، ومن ضمن واجباتي تأمين الطوق الأمني الخارجي للمناطق القريبة من دور العبادة فبين هذا الجامع وتلك الكنيسة وهذه الحسينية كان العمل في أشده حيث التفتيش المستمر والتفرس في الوجوه المشبوهة، ومحاولة اكتشاف نوايا المارين، الإرهاق أضناني، فأنا لست بهرقل الجبار ولست بشارلوك هولمز،

الناس كأنها ترتدي قناع الاختفاء، فالوجوه التي أراها والأصوات التي اسمعها مخادعة، تتبهرج باللطف والتمنع لكي تصل إلى منالها، وهو عبور نقطة التفتيش بأسرع وقت ممكن، اذكر لكم يوم كنت أفتـــــش بالقرب من الكنيسة مرت حينها عربة تحمل فتاتين وطفلاً كانتا تجلسان في الخلف، بينما السائق كان يحاول الإسراع في العبور، اقتربت منهم محاولاً معرفة سبب تواجدهم في هذه المنطقة بالذات، لكني لم أجد إجابة شافية فليس من عادة المارة شرح أسباب مرورهم، رمقته بنظرة حائرة، فقررت أن لا أسأله أكثر، وقلت له:

_ أذاً، رافقتكم السلامة.

دونت رقم العربة في مفكرتي التي أحملها معي دائماً، وطلبت من استخبارات دائرتي التحري عن هذه العربة، لا أعلم لماذا جذبتني نظرات تلك الفتاة التي كانت تجلس في الخلف، كانت تحمل طفلها وتحمل في الوقت ذاته كامرتها، ماذا ستفعل بهذه الكامرة في داخل الكنيسة؟ هل هي صحفية أم مجرد هاوية للتصوير؟ تركت أفكاري خلفي وتركت الأمر للجند، استمريت بالحديث إلى أن وجدت الأولاد مستلقين على الأرض والنوم يرافقهم:

- ما هذا؟ ما زلت لم أكمل لكم مشواري في الواجب!
- اتركهم فمنذ الصباح وهم يلهون ويلعبون.
- إذا سأستلقي إلى جانبهم، فأنا أيضاً اشعر بتعب شديد، وعندما يستيقظون حاولي إيقاظي كي لا يضيع الوقت مني معهم.

لم يفارقني الواجب حتى في منامي، تقلبت على الجنبين وأنا اصرخ وأطالب الجنود بالإمتثال إلى أوامري، حتى اقترب طيف أحدهم مني، فتحت عيني لم أجد أحداً، ما زال الجميع يغطون في نوم عميق، قمت من مكاني بللت وجهي

ببعض الماء، سقط نظري على لوحة جديدة قد علقت على أحد جدران الحجرة كانت لمريم العذراء لا أعرف لماذا شعرت بقشعريرة غريبة! عدت إلى مكاني وبدأت بترتيب ملابسي فهذه المرة إجازتي لم تتعدَ اليوم الواحد بل إنـها كانت تقريبا نصف يوم، فغداً سأعاود التفتيش في المكان ذاته

.

الفصل الأول

المشهد الخامس

أبو قتادة الإرهابي

كنتُ في العاشرة من عمري، حين سقطت قذيفة صاروخية قريبًا من جدار الغرفة التي أحتمي بها أنا وأخواتي الثلاثة وأمي، لحظتها أغمضت عينيّ، ونسيّتُ أن الموت ذكيًا بما فيه الكفاية، ليتنكر بهيئة انفجار رهيب، كأنّهُ قيام الساعة يحتضن بيتنا الصغير.

لم أستعد وعيي بعده إلاّ وأنا مخضب بالدماء، وعلى مقربة مني، ترقدُ أمي وأخواتي تحت كومة ألأنقاض، في تلك اللحظة لم يكن لديّ شيء لأقوله، سوى أنّي تأملت طويلاً وبصمتٍ، الأنقاض التي عَلّت صدور عائلتي، ثم انتزعتُ قلبي منّي عنوةً، ورميتهُ على جثثهم وغادرت، ولم أره بعد ذلك أبدًا.

لا أدري لِمَ يجتاحني حزن وغضب شديد كلما شاهدتُ الناس من حولي مبتهجيّن بالخلاص من الطائفة، ويتغّنوّن بالوطنية والحرية والسلام، ربما لأن هذه الأشياء غير ملائمة لتفاصيلي الحاقدة، تفاصيل لا يليق بها إلاّ الإنتقام، أو أي فعل يناسب قبْحها، ولعلَ هذا ما جعلني أبحث عن مهنةٍ تشبه تفاصيلي، حتى لا أضطر فيها لمواجهة أشخاص كالذين يلهجون بأسم الوطن، أو التحدّث لأولئك الذين ينصّبون أنفسهم سفراء للسلام.

بعد ثلاثين سنة من اللحظات الملّقمة بإنتظار الموت، وجدتُ نفسي أعمل مع تنظيم الدولة، وأرى العالم كومة حطب إحراقها فضيلة! حين غدت أيامي مشحونة وكل همي إقامة حدود الله، على الرافضة والنصارى والمرتدين، لم يعد هناك متسع لأمنياتي التي كنتُ ادخرُها في طفولتي، في إكمال دراستي، والزواج والإستمتاع بالحياة.

بدأت العمل أول مرة كجندي عادي، بعدما تخرجتُ من معسكر تدريبي سريع، وبايعت بعدها الوالي أبا أنس الفرنسي مسؤول معسكر التأهيل

والتدريب، ثم أوّكلت إليّ مهمة نقل السيارات المفخخة إلى بغداد، بعدها عُينت آمر ديوان الحسبة بالتنظيم، ثم مساعد والي بغداد، كُنا نقوم بعمليات نوعية بشكل شبه يومي، بدأت خطتنا بإقامة الحدّ على عدد من الأطباء الكفرة، ثم أساتذة جامعات، ورجال أعمال، ثم صرنا نستهدف الأسواق الشعبية، والمساجد والحسينيات، كانت بغداد تغفو على رائحة الموت، وتصحو على رائحة البارود والدخان، حتى ذلك اليوم الذي وصلتنا فيه رسالة الأمير التي قال فيها بأن النصارى يفسدون ويعيثون بأرض المسلمين، وأن أفضل الجهاد جهاد تدمير دينهم الزائف.

في تلك الفترة تركزت خططنا بكيفية القضاء على النصارى، وتطهير الأرض من فسادهِم، فوقعِ الإجماع على كنيسة سيدة النجاة أولاً لتكون أول صفعة مؤذية للكفرة، كنا نطمح بالسيطرة على الكنيسة وإجبار من فيها على اعتناق الإسلام أو القتل، وكان من الصعب أن يذهب أحد الإخوة لاستطلاع المكان لئلا يثير الشك والريبة، فتفشل خطتنا، لذا توجب علينا وضع خطة محكمة، فلم أجد أفضل طُعم من زوجتي التي أقنعتها بالتنكر والذهاب إلى هناك لتكون خير دليل ومعين لمهمتنا.

في ذلك اليوم الذي عادت فيه زوجتي من معبد الكفرة تحمل خريطة المكان، لم يعد النصارى والروافض وحدهم معضلتي، فقد امتد العطب والغضب من رأسي إلى أخمص قدمي، بعدما سكنتْ "بلسم" ثم أطرقت رأسها نحو الأرض، وامتدت يداها نحو أطراف النقاب، لتمسح الدموع، بعدما سمعتها تقول: أبواب الكنيسة مفتوحة للجميع لن تجد من يصدك.

الفصل الثاني

المشهد الأول

بلسم الإرهابية

سمعته يصرخ ويجعجع ويملي بأوامره على باقي الرجال، الذين لم يغفَ لهم جفن منذ بدء المهمة وحتى هذه الليلة التي اكتظت بالنجوم رغم عدم اكتمال القمر، فهن يتصارعن مع بعضهن وهو يتصارع مع نفسه لاختيارهم بإتقان، يملأ عقولهم بكره الأديان الأخرى ويقسي قلوبهم على باقي البشر الذين لا يحملون من الأفكار ما يلائم أفكاره، فجأة ساد صمت غريب أعقبته نظرات غاضبة ليرفع عصاه ويرميها على أحدهم قائلاً:

- أنت آراك سارحا في مكان آخر؟ الآن تسرح ويوم الإقتحام ماذا ستفعل؟

أمسكت بيده قائلة:

- على مهلك فهم قد اخذوا بعض من الجرع التي كنت تحضرها لهم لوقت الإقتحام.
- ومن أعطاها لهم الآن؟
- أنت.

شدني بقوة من ذراعي لدرجة أحسست إنها ستخلع:

- غبية أنت، قلت لك إنها ليوم الإقتحام.
- لست غبية أنت من أعطاها لهم منذ ليلة أمس، رأيتك بأم عيني.
- والمتفجرات أين هي؟ أتمنى ألا تكون هي الأخرى قد زرعت في مكان آخر.

- لا.. اطمئن، أبعدتها عنهم، فقد قضيت ليلة البارحة وأنا أخيط الملابس التي ستزرع في داخلها، وقمت بتخزينها في الصناديق لحين صدور أوامرك.
- إذاً أنت أيضاً اذهبي لتستعدي ولا تقفي قبالتي كمسمار متحجر في الأرض.

رغبت بلكمة على وجهه فهو لا يقدّر عملي ولا يجعل لي شأناً بين الجموع، التفتُّ عائدة اجر ببعض الأسلحة التي كان يجب أن أعيد تنظيفها وتجهيزها، اقتربت من بعض النسوة اللاتي جلسن يتسامرن في إحدى الحجرات:

- كفاكم مضيعة للوقت، هيا قمن بتجهيز هذه الأسلحة أيضاً، فليس لدينا ما نضيعه في الأحاديث الفارغة.

تربعت على إحدى الصناديق المغطاة أراقبهن وهن يعملن، حتى غلبني النعاس فغفوت، حينها رأيت روحاً تطوف حولي، كانت تشبهني كثيراً لكنها متشحة بلباس أبيض، حملت كأساً من شراب أحمر، وعندما اقتربت مني محاولة أن تسقيني سكبته على ثيابي ورحلت، فتحت عينيّ، لم أجد أحداً بقربي يرتدي شيئاً ابيض الكل متشح بالسواد، ولا يوجد أي كأس من أي لون، انه منام لعين أتمنى أن لا يعاودني، قمت من مكاني بخطوات متباعدة، أشعة الشمس بدأت تنثر بضيائها على أرجاء السماء والأرض، حان الوقت لإتمام كل شيء، فتحت الصناديق وأخرجت الملابس الكل يصطف في الخارج أُناول كل واحد منهم قطعته الخاصة به، لا أراهم في كامل وعيهم فقط البعض ممن خصصوا للمداهمة فهم

من سيمسكون بزمام الأمور أمام الذين تم تفخيخهم، لا أعلم كيف ستسير الأمور؟ لكن ما أعرفه أني سأكون في المقدمة.

الفصل الثاني

المشهد الثاني

أبو قتادة الإرهابي

حين يقلبك الماضي على راحتيه الساخنتين، ستنصهر في عالمٍ أثيري عميق، يعمق طرديًا مع أوجاعكَ، أمانيك، أحاسيسك، وحين تكون أنت من تخصهُ الحكاية القادمة، ستتيقن بأنك ودعت زمناً غابراً بآخر أغبر منه، ففي ذلك اليوم الذي رأيت فيه أمي وأخواتي مضرجين بالدماء، عرفت أن لدماء عائلتي لوناً واحداً تتميز به عن باقي البشر، ولكن حين استليتُ سكيني- ولأول مرة في حياتي- من رقبة شابٍ رافضي، كانت حمراء قانيةً، بلون دم أمي وأخواتي، حينها عرفت أن للدم لوناً واحداً فقط، ولكن بمذاقات مختلفة.

رغم انشغال الإخوة، بأعمالٍ جهادية، تمثلت بإنفجارات هزت عروش الكفرة، في يومٍ تهلهل فيه اللون الأحمر، وتهندم الدخان الأسود بسماء بغداد ضاحكًا ومعربدًا، وَزُفَ فيه إلى الجنة كوكبة من الأبطال، بعملياتٍ استشهادية، جعّلت الأرض أكثر جحيّمًا على أعداء التوحيد والإسلام، في صبيحة ذلك اليوم تمكنت من عقد لقاءات عدة منفردة ومكثفة مع عدد من الإخوة في التنظيم، تمخض عنها إجتماع دام لأكثر من ثلاث ساعات جمع عدداً من المجاهدين الذين رشحوا لتنفيذ العملية، وكانت هناك آراء واقتراحات كثيرة، تداولها المجتمعون، مثل كرة القدم كل منهم يحاول إضفاء لمسته، فمنهم من اقترح تفجير الكنيسة من دون اقتحامها، وكان هذا رأي أبي عمر وأيده بعض الجماعة، أمّا أبو الولاء وأبو الوليد، فقد اقترحا اقتحام الكنيسة لحظة خروج النصارى من المعبد، وقتلهم، قبل التفجير، لكن هذا أثار استياء عبد الرحمن وأبي عمر وسعيد أبي حفص الأفغاني، معللين ذلك بأن الكفرة؛ سيتيهون في البناية ويفرون في أزقة الشوارع، وبذلك سيضيع جهادنا وجهدنا ونعرّض مجاهدينا لخطر القبض عليهم، وبعد هذه الأفكار والاقتراحات المسددة، اتفقنا على خطة محكمة، أجمع عليها وأيدها كل

الإخوة، وبهذا انتهى اجتماعنا بوضع اللمسات الأخيرة للهجوم، على معبد الكفرة، كانت الإستعدادات مكثفة في ذلك اليوم، إذ أوكلتُ لزوجتي بأن توجه النساء، لتجهيز العدّة والعتاد للرجال، بينما أكثرت من الإتصالات وإعطاء التوجيهات والتعليمات للمجاهدين الذين سيقومون بتنفيذ الهجوم، حتى لا تحدث أخطاء محتملة، من شأنها أن تُفسد العملية، ورغم أن الخطة التي وضعتها شائكة وصعبة بعض الشيء، وتكمن صعوبتِها في أن الكنيسة تقع في منطقة سكنية مكتظة، تطوقها نقاط ودوريات أمنية كثيرة، لذا فأن هذا سيجعلنا ندخل في تحدٍ مع الوقت والقدر، إلا إن الإخوة كانوا متشوقين ومتحمسين لدماء النصارى، كحماس الذئب للحم الشاة.

في الساعات القليلة التي سبقت تنفيذ المهمة، حدث أمران تحيّرَ فيهما فكري؛ الأول كثرة شرود "بلسم" وغوصها المتكرر في دوامات من التفكير العميق؛ والآخر؛ كان في شارع الكنيسة التي كنا نستعد للهجوم عليها، كنتُ هناك لأستطلع الطريدة للمرة الأخيرة، حدث لي شيءٌ لم أفهمه بعد، تمثّل بساقٍ بيضاء كبياض القطن والشحم والثلج، وكبياض القلوب البريئة مجتمعةً، كانت تلك الساق لإمرأة كافرة خرجت من هناك، وقد تساءلت حينها بلوعةٍ كيف يمكن أن يكون للبياضِ عورةٌ وللدمِ لا!

الفصل الثاني

المشهد الثالث

الراهبة سارة

تنبعث روائح الورود الزكية من نافذتي المطلة على حديقة الدير، الليل يبعث على السكون في أعماق النفوس، عيناي لم تتمكنا من إغلاق أجفانهما، كثير من الذكريات والأحداث مرت أمامي كشريط كامرا قديم، سقط نظري على الدرج المركون في أحدى زوايا قلايتي، أثناء تفحصي إياه تذكرت دفتر مذكراتي وكيف كنت أكتب فيه في أيام صباي؟ كل ما يتلوه عليّ فكري وما يحدث أمامي، أسرعت للدرج سحبت دفتري منه بسرعة، قلبت ما تحت الأوراق لأخذ بعدها قلمي، عدت لسريري والأفكار تتزاحم بشكل كبير، كم هائل من الأحرف يود أن يسقط شهيداً خالداً على سطوح الأوراق، أخذتُ نفساً عميقاً أغمضت عينيّ، وضعت فم قلمي على أول رواق من أروقة البياض، أنسدل الستار على عالم الواقع، فتحت أبواب الخيال لأكتب:

لا أحد هنا، الضباب يملأ المكان، أصوات طائر البوم تمتزج مع مواء القطط الملتحفة بزوايا الأماكن، تصدر لنا مقطوعة غنائية برعاية الريح، منذ أكثر من سنة وأنا أجلس هنا، أصافح كل يوم وجه ذلك الكرسي الجالس قبالتي، ما زلت أستطيع استنشاق ذلك العبير المنبعث من مساماته وكأنه هو الآخر يأبى أن يتخلص من ذكرى صاحبه، أصبح رفيقي الوحيد أفهمه ويفهمني، كلما تعثرت في دروب ذاكرتي ألجأ له خائفاً، يضمني إليه بقوة لدرجة أشعر بطقطقة أضلاعي، من الخائف يا ترى هل أنا أم هو؟ من الذي يطلب الأمان بيننا؟، أسترق النظر إليه، أرى دمعة تسقط منه، كيف للجمادات أن تبكي؟! فجأة شعرت بها ازدادت رائحة عطرها قوة، على كتفي أحس بيد تربت عليه بلطف، أيعقل أن روحها مازالت عالقة على هذا الكرسي؟ في ذلك اليوم الذي

انتظرتها طويلاً لم تأتِ ما السبب يا ترى؟ انتظرتها طويلا وللآن لم أبرح من مكاني هذا، كثيراً من المارة وصفوني بالمجنون. نعم جننت بفاتنة زماني، لكنها خذلتني، هل حقا خذلتني؟ لم أشعر الآن هي من تحتضنني وتربت على كتفي، ولمَ أنا لم أفارق هذا المكان أيعقل أن روحي تعرف بوجود روحها وأبت أن تتركها لوحدها؟ البرد تمكن مني، سأحاول أن أوقد بعض الحروف على هذه الورقة لتدفئتي. حلَّ الصباح مع ضجيج غير عادٍ، يتجمهر جمع من الناس حول رجل مصفر شاحب ساكن الملامح، رجل أنهكه البرد حتى قضى وهو معتنق الكرسي بقوة، وجدوا بقربه ورقة كُتِبَ عليها:

"ما أجمل الموت بين أحضان حبيبتي!"

قطعت أفكاري رائحة غريبة تسللت لغرفتي أجهل مصدرها، تركت ما بين يدي بسرعة ارتديت ثوبي ثم نزلت السلالم، عند المذبح وجدت إحدى الشموع المتقدة قد سقطت وأحرقت جزءاً بسيطاً من الفرش، همت في شعلتها الملتهبة، يسيل الشمع على جانبيها، فتيلها نذر حياته للموت في رحاب الرب، كلما أطلت النظر في لهيبها تهيأت لي ذكريات قديمة، استيقظت من غفلتي قلقة خوفاً من مجيء أحدهم، أسرعت في تنظيف المكان وترتيبه، عطرت المذبح بروائح البخور الزكية، وقفت بعدها أمام الرب معتذرة لما بدر مني من تقصير تجاهه، عاودني ذلك الشعور من جديد، كلما ينتابني أشعر بالذعر، زفرت بقوة وتمتمت:

– يا أبانا وربنا ومنقذنا: إني نذرت لك قلبي وكل حواسي، ألطف بهِ واسكب عليه من فيض رحمتك سكينة وأماناً لا يغادرانه أبداً.

جسدي لم ينل حصته من الراحة منذ الأمس، عيناي يتوسلان لأخذ جرعة صغيرة من النوم، لجأت للمقاعد وجلست أنظر للرب يسوع متأملة جماله حتى أتخذ سلطان النوم قراره الأخير ثم غفوت.

– سارة، سارة استيقظي يا أبنتي.

فتحت عيني بكسل شديد وإذا بي أرى القس واقفاً أمامي ناظراً لي بتعجب، وقفت مذعورة والكلام يخرج متعثراً مني:

– آه أبتي، أعتذر جدا لقد غفوت دون دراية.

أصفرت ملامحي، جف ريقي، سأخفي عنه تقصيري كي لا يؤنبني.

– ما بكِ يا سارة؟ لا تخشي شيئاً سأكون معكِ في كل شيء.

– شكراً لك يا أبتي، حفظك الرب يسوع.

وقفت بين يدي الرب يسوع تلوت صلاة الساعات ثم توجهت بعدها لعملي، غيوم السماء تشكل لوحة فنية أبدع في رسمها خالقها، أشعة الشمس تحاول إيجاد منافذ صغيرة للعبور منها، طيور النورس وأغنياتها الغزلية لنهر دجلة تضيف جمالية لهذا اليوم المقدس، أصوات عجلات السيارات، الباعة المتجولون، همسات الشجر، أغاني نافورة مياه الكنيسة كلها تبدو عليها البهجة والفرح.

الفصل الثاني

المشهد السابع

الصحفية عائشة

أغلق النهار صفحات كتابه البالية بإحكام، وأخفت الشمس أضواءها خلف ستائر مسرح المدينة تاركةً للقمر لغز اكتشاف كواليس سُكانها، وصلت باب شقة المنزل وأنا أحمل علياً بين أحضاني لم يستيقظ منذ أن خرجنا من الكنيسة استغربت حاله وقلت لنفسي:

– ربما قد وجدتَ سكينتكَ أخيراً خلافاً لوالدتك التي أفنت عمرها باحثةً عن طرف وصالها. فتشت بحقيبتي عن المفتاح وحالما لامستهُ يدي انتصبتُ بجسدي عند سماع هاتفي يرن، وحده هو من كان يتصل بمثل هذا الوقت في الثلاثين من كل شهر.

أخرجت الهاتف مع الكثير من المشاعر المتناقضة وما أن انسدلت أنظاري إليه، حتى احتضنت عيناي حروف اسمه وأشرق بوجهي ابتسامة تشبه معانقة الزهور الحائمة للربيع كيف إنها تتجرد من أوراقها الذابلة حين تنساب إليها الرياح حاملةً أخبار ربيعها.

صوت خشخشة المفاتيح وفتح الباب أعادت إلى شفتي برودتها وصَقيع شتاءٍ لم يغادر بيتي منذ وقتٍ طويل؛ فرفضتُ المكالمة دون أن أجيب، دخلت بخطوات متثاقلة انتزعت حقيبتي مع الكاميرا من على كتفي راميةً بها على مقاعد الغرفة المقابلة لمَشرف النافذة لا اعلم! لمَ لا يبدو عليها الهلاك، صامدةً رغم جفاء المكان وصراخ الجدران بموت الحياة بهذا البيت الرتيب.

سرت بعلي وأنا احمله إلى غرفتهِ، أضأت المصباح ووضعته على السرير بعد محاولاته التشبث بي مراراً، جلست بقربهِ وضعت يدي على رأسه لكي أزيح بعض خصلات شعره المتدلية على جبينه، أمسكت بيده وقبلتها، يبدو

كالملائكة تأملته كثيراً، يشبهه بعض الشيء، ينام فور شعوره براحة المكان تماماً مثله.

أردت أن امنح نفسي الشعور ذاته هذه المرة، لذا تجردت من التفكير بشأن العمل والكنيسة وكل شيء وارتميت بجانب علي، عانقته بقوة وكأنه أحس بذلك متمتماً ببعض الكلمات المتقاطعة التي لم افهمها قلت له بصوت منخفض كي لا أيقظه من نومهِ:

- فقط أبقَ كما أنت أبني، لا تخف أنا أمك.

أغمضت عينيّ وتركتُ العنان لأحلامي بالإنطلاق، صوت ما من بعيد انشرحت روحي له كلما أقترب منه أكثر بمكان ما مليء بالبياض، رأيت علياً ينادي باسمي مشيرًا بيده نحو الصوت ذاته، أخذت بيده لكي نمضي إليه معًا، فزعت على صوت علي قائلًا:

- أمي أريد ماءً.

- حسنًا يا بني.

صوت أذان الفجر قد احتوى السماء وتجسد بكل ركن مظلم ليشيع داخله نوراً يعيد له الحياة، نظرت نحو الساعة علمت أني قد استغرقت بالنوم كثيرًا. نهضت من على الفراش، توجهت إلى دورة المياه لكي اغتسل، ارتديت المِحرم لكي أصلي واسجد وخطر ببالي أن ذلك الحلم ربما كان إشارة من الله لي، دعوته كثيرا أثناء السجود، وبعد أن انتهيت أشرعت للعمل الذي تركته خلفي، كنيسة سيدة النجاة العمل الذي علقت عليه الكثير من الآمال حرصتُ على أن أكون أنا من تقوم بذلك، قرأت لها وجمعت عنها الكثير من

المعلومات ولكن ما أن وطئت قدمي حضرتها تلاشت توقعاتي وعزمتُ أن أكتشف جمال خفايا ثناياها بتعمق.

استمررت بالعمل إلى أن أشرقت الشمس بنافذة الغرفة وهي تداعب الستائر بخجل الرياح المتسلل من خلالها، بعدها أعددت الفطور، وأيقظتُ علياً من أجل اصطحابه إلى روضتهِ لا أستطع تركه وحده هنا.

- علي، تعال الآن لتناول الفطور.
- أمي هل سوف اذهب معكِ اليوم؟
- نعم بالتأكيد وهل أجرؤ على أن أتركَكَ هنا، ولكن قل لي هل حزمت أمتعتكَ؟.
- نعم أمي فعلت ذلك. لحظات حتى سمعت صوت سائق السيارة الذي يقلنا يومياً.
- صباح الخير سيدتي.
- صباح الخير.
- وأنت علي تبدو نشيطًا اليوم!
- نعم أيها العم سوف اذهب مع أمي لمكان عملها.

أجبت السائق مبتسمة:

- ليس الآن، وإنما بعد أن ينتهي من الروضة.
- حسنًا.

أوصلنا علياً إلى هناك بصعوبة كانت الشوارع مكتظة بالسيارات، زحام لا متناهي يوميًا، حتى أنها أفقدت الناس الرغبة في المواصلة والإستمرار، الجميع عابس بوجه الحياة وكأنهم قد تركوا دينًا لهم عندها، نفرت وقلت:

- **متى سوف نصل إلى القناة؟ لقد تأخر الوقت.**
- **هذا هو آخر طريق مختصر نسلكه سوف نصل عما قريباً.**
- **حسنًا إذا.**

حالما وصلت مكتبي تم استدعائي من قبل رئيس التحرير، تناقشنا بشأن الكنيسة ومن سوف يحضر معي من المصورين والمساعدين، كما أخبرني بأنه تم ترقيتي بالعمل وأصبحت مشرفة على قسم الأخبار العاجلة أيضاً، إضافة إلى عملي الحر كصحفية مستقلة، لم أستطع إخفاء فرحتي بذلك غادرت مكتبه وأنا أشعر بأن مسؤوليتي قد زادت أكثر، تفقدت قسم الأخبار لأرى طبيعة العمل فيه أمضيت وقتاً طويلًا هناك إلى أن قاربت ساعات انتهاء عملي.

فتذكرت أن عليَّ الاتصال بنور من اجل أن تقل علياً من الروضة، تفقدت الهاتف وسرعان ما أضاء برسالة كانت منه أيضاً، وكأن رفضي لإتصاله أمس لم يكن كافيًا لكسر قواعده البالية، فتحتها لكي أعرف أي حركة جنونية قد سلكها اليوم.

"لا تأتي إلى دار رياض الاطفال، فأنا من سوف يصطحب علي هذا اليوم، اتصلت بكِ في الأمس ولكنكِ رفضت الاتصال، فاضطررت لفعل ذلك دون موافقتكِ".

لطالما كان يفعل ما يريد حتى وأن رفضت ذلك أو لم أجب، كنت اعتقد أن كل شيء سوف ينتهي منذ ذلك الوقت، لكني قد أخطأت الإعتقاد فما كان ذلك إلا بداية جديدة لا أعلم نهايتها، غضبتُ جداً، أردت حقاً أن يرى علي كيف تعمل والدته؟ حين شعرت أنه قد أحب العمل مرة أخرى اضطررت إلى أن اتصل بنور وأخبرها بأني سوف اذهب وحدي اليوم واصطحبها في اليوم التالي مع علي لكي تتولى الاعتناء به أثناء عملي.

الفصل الثاني

المشهد الخامس

الرائد باسل

جهزت حقيبتي وهذه المرة خفيفة الوزن، فلم أضع فيها غير القليل من الملابس وجزمة جديدة وكامرا صغيرة استخدمتها في الماضي عندما كنت أعشق التصوير، فشكل الفتاة وهي تحمل كاميرتها وطفلها قد جعلني اشعر بأني غير قادر على تنسيق وقتي بين العمل وهوايتي في حين هي استطاعت، وضعتها بالقرب من السرير وعدت إلى الأولاد أقبلهم من جباههم برفق لم ارغب بإيقاظهم فهم كالملائكة يرقدون، حوطتني زوجتي بيديها، قائلة:

- ستغادر؟
- ليس الآن، لكن عند أول شعاع للشمس يجب أن أغادر.
- إذا فلتجلس معي وتحدثني، فأنا مشتاقةٌ لك كثيراً.

بادلتها الحب، هامساً في أذنها:

- أنت في ذهني طيلة أيام عملي، وأتمنى لو أعود كل ليلة، لكنك تعرفين إننا في إنذار مستمر، وفي كل مرة نواجه أخطاراً شديدة، ويجب أن نكون حذرين ويقظين.

وضعت رأسها على كتفي:

- لا أريدك أن تغادر، أتمنى لو تترك هذا العمل، فكل يوم يمر اشعر أني أموت ألف مرة، وعندما اسمع أخبار الإنفجارات لا اعرف كيف يمكنني أن اطمئن عليك، أحتضن أولادي وأدعو الله أن يعيدك إلينا، حتى الدموع تمزق عيني وتعذبني كأنها تؤنبني لأنني أتركك في كل مرة تعود لهذا العمل.

كلماتها أيقظت في قلبي مشاعر لم اعرف كيف أترجمها، فبين حزن شديد وفرح عميق وحب لم اشعر به طيلة فترة زواجنا ها هو الآن يستيقظ من سباته، لا اعلم هل الروتين أفقدنا الحب أم عملي الصعب أنساني إياه؟، زوجتي تسمعني كلمات لم أكن اسمعها لو كنت بجنبها كل يوم، شعرت بشوق لها جعلني أكمل حديثي معها بحب غامر.

صوت المنبه قطع حديثنا، إنها الخامسة صباحاً، حان وقت التحاقي، التفت إلى زوجتي وجدتها بدأت تذرف الدموع لم أكن ارغب برؤيتها هكذا، فأنا سأعود كالعادة، لم هذه المرة أجهشت بالبكاء؟ حملت الحقيبة وأنا أخبرها بأن تتوقف فدموعها ستجلب لي الفأل السيء، وان لم أعُد سأؤنبها بنفسي، ابتسمَتْ بفمها الحزين مخرجة قهقهات ممتزجة بشهقات، قبلتها وخرجت أتفقد أولادي مودعاً إياهم.

استقليت عربتي وسرت دون أن التفت، لا أريد أن أفكر بما قالت فمشاعري أصبحت مشوشة، لا أريد أن اترك عملي، فقد بذلت الكثير حتى أصل إلى ما أنا عليه، وفي الوقت ذاته لا أريد أن أجرح قلبها ببعدي، ففضلت ألّا أفكر بشيء فقط يجب أن أتوجه إلى المقر لأستلم عملي، وعندما وصلت وجدت الفريق يصطفون وصوت الآمر يصل إلى آخر المعسكر، تبادلنا التحايا العسكرية تبادلنا الأدوار همس في أذني:

- كنت انوي تدريبهم التحمل ومهنة الميدان، لكني سأتركهم لك، أتمنى ألا تقصر في ذلك.

أمرتهم بأعلى صوتي:

- رااااحة...... ااااثبت.....استاااااااااعد....عادتااااااا سر....وازناً هرووول.

الكل اخذ يهرول نحو البركة، وعندما اقتربوا أطلقت صفارة الإنذار، وأمرتهم بالإسراع لإنقاذ زملائهم من هجوم مدبر، الكل إتجه صوب المسكن وهم شبه عراة، ارتدوا بزاتهم العسكرية واتخذوا مواقعهم وأنا أخذت أصورهم وهم يقومون بعملية الإنقاذ التي قمت بها كنوع من التدريب، دققت في الوقت لأرى كم استغرقوا لتخليص الرهائن، كانت المدة لا بأس بها، سجلت ملاحظاتي وأرشفتها بالصور التي التقطها، كان يومي مع الكاميرا جميلاً، يا ترى هل هي أيضاً تستمتع مع كاميرتها؟

جاءني نداء يبلغني بوجوب الإنطلاق بدوريتي كالمعتاد، للتفتيش والإشراف على النقاط المجاورة، وها أنا في وسط الشارع أمارس مهامي العسكرية.

الفصل الثالث

المشهد الأول

أبو قتادة الإرهابي

هل جربت أن تهرم ثلاثين سنة دفعة واحدة؟ أتذكر في طفولتي أني حفظت مقطوعة شعرية لشاعر يدعى محمود درويش، وكان يقول في أحد الأبيات:

– وأنت تنام وتحصي النجوم فكر بغيرك.. ثمة من لم يجد حيزاً للمنام..

كان ذلك البيت ذا وقع مختلف، يحفر قلبي في كل مرة أتذكره، ولأني من النوع الذي يعشق الوجع، كنت أعشق هذا البيت وارردده كثيرًا، وبعدما دُمر منزلنا وصار كومة أنقاض، توهمت لسنوات بأن محمود درويش كتب هذا المقطع، يرثي به بيتنا، لكن الأمر أتضح لي بأنه عكس ما أعتقد، فعشية اليوم الذي دُمر فيه بيتنا، كنتُ أعد النجوم وأفكر بنفسي، فليس ثمة حيّز لأنام فيه غير باب المسجد الذي أقفل بابه بعدما قُتل أمامه برصاصة طائشة، وفي تلك الليلة وبعدما أكملت عدّ النجوم كبرت ثلاثين سنة دفعة واحدة، وقد حاولت فيما مضى أن أبحث عن عمل واشتغلت في مهن مختلفة وفي محافظات بغداد والموصل والبصرة، كنت أستمر في العمل بضعة أيام فقط، ثم أعود إلى بيتنا المدمر، واقف هناك بجسدٍ ملوّه الوهن والإحباط، أمضي ليلتين أو أكثر أرفع الأنقاض؛ علني أعثر على ما تبقى من ذكريات البيت القديم، حتى لو أطاراً للوحة عذابي، مثلا يد أحد إخوتي على أقل تقدير، كانت هكذا تمر وتيرة أحزاني، ومرت الأشهر والسنون بسرعة من ضيع نظارته، حتى اصطدمت بأصدقاء السلاح والنار والدم، وتعلمت بفضلهم كيف تجعل من يخالفونك في الدين والمعتقدات يشيخون ثلاثين سنة دفعة بتفجير واحد؟.

كان دخول الكنيسة ذا وقع غريب، لا يشبه سماع أو تذكر قصيدة محمود درويش، ولا يختلف عنها، إلا إنه وجل ما فهمته، يبث وللوهلة الأولى

إحساسين متعاكسين في داخل المرء، واحد يشعره بالهدوء والسكينة ويرغبه في التخلص من أعباء الحياة، وآخر في تفجير المكان ومن فيه.

في عصر اليوم الذي كنا سننفذ فيه عمليتنا الإنتقامية ضد النصارى، دخلنا الكنيسة بمعية زوجتي بلسم، وقد انتشر الإخوة سريعاً في المكان وأخذ كلٌ منهم موقعه، بعدما حفظ دوره وما عليه فعله، كان كل شيء يسير حسب ما خططنا له، إلا إنها كانت في تلك اللحظات مضطربة وخائفة بعض الشيء، ولقد رأيتها تكبر ثلاثين سنة دفعة واحدة، بعد الرصاصة التي لفحت وجهها واستقرت برأس القس كبير الكفرة.

الفصل الثالث

المشهد الثاني

بلسم زوجة أبو قتادة

ميل الساعة يسابق الزمن وها هو يقحمني في الساعة الخامسة عصراً، نعم إنّه الوقت المحدد وها أنا ذا أقف أمام الكنيسة سأدخلها وأنا احمل الكثير من الكره والحقد على نفسي وعلى من يسكنها، وها هي سارة تستقبلني.

- من أرى السيدة بلسم تفضلي كنتُ بانتظاركِ، أين الشباب الذين قلتِ إنهم يرغبون في التعرف على الكنيسة؟.
- إنهم في الخارج، رغبت أن استأذن قبل إدخالهم.
- لا لا، لماذا تركتيهم؟ أدخليهم، فهنا لا يحتاج إلى الإستئذان، تفضلوا، على الرحب والسعة.

عدت للوراء بخطوات بطيئة، وأشرت بيدي إلى الرجال للدخول، وما كانت إلا لحظات حتى أصبحوا بجانبي.

- أهلاً وسهلاً بكم، تفضلوا بالجلوس بعد أن ينتهي القداس سأقوم أنا والراهب بإطلاعكم على كل شيء.

وبينما كانت الراهبة سارة تتحدث لمحت الصحفية متوجهة نحونا:

- بلسم كيف حالك؟ الحمد لله إننا جئنا في الوقت المحدد؛ لكي نحصل على المعلومات ذاتها.

قبلتها من وجنتيها الساخنتين قائلة:

- أين ولدك اليوم؟ كنت ارغب باللعب معه قليلا.
- هو مع والده لن يستطيع المجيء اليوم.

شعرت ببعض الاطمئنان على الأقل لن أضطر للبكاء أمامها.

- صوت الأجراس تقرع، كأنهم سيبدؤون الآن، سأذهب هناك لأجلس مع الفريق الذي جلبته معي.
- كما تحبين فأنا سأجلس في المقدمة.

بدأ القداس وبدأ الراهب يتلو تراتيل الإنجيل، سرحت للحظات وأنا استمع للجوق الموسيقي وهو يعزف ويرتل، ولكن هذه الأجواء لم تستمر طويلاً فقد قاطعها أبو قتادة بصوته الأجش وهو يهمس في أذني:

- استعدي سنبدأ بعد قليل ما عليك سوى التمكن من الراهبات.

عيناه الحمراوتان تزدادان شرارا حتى تخيلتها ستحرقني:

- اطمئن هن تحت نظري، ولاسيما تلك التي استقبلتنا، بعد قليل ستدخل لجلب الشموع والأواني.
- ومن تلك التي احتضنتها؟
- أنها صحفية تعرفت عليها أثناء تجوالي هنا، فهي أيضاً ترغب بالتعرف على الكنيسة ولكن لغرض آخر.

رمقني بنظرة غضب:

- كفاك جدالاً، فالغرض الذي جئنا من اجله أسمى من أي شيء آخر، لو كان عندك أي شك أخبريني وأنا سأريك مدى سمو عملنا.

أتراني مجنونة لأخبرك بما في قلبي، بالتأكيد لن يدوم حديثي طويلاً حتى ألاقي مصيري المحتوم بين يديك، قلتها في سري والتزمت الصمت حتى عادت سارة من قلايتها وهي تحمل الشموع وأناءً فضياً فيه قطع صغيرة يلقمها القس في أفواه المصلين، كان لدي الكثير من الفضول لمعرفة ما

الذي يضعوه في فمهم، قمت من مجلسي لاقف أنا أيضاً، لعلي أحصل على قطعة لأتذوقها، لكن يد أبي قتادة كانت أسرع من محاولة قيامي:

- إلى أين تذهبين؟ خذي هذا المسدس ستحتاجينه عندما آمرك بذلك.
- سأعود في الحال فقط أريد أن أعرف ما الذي يضعه في فمهم.
- يضع السم، ما الذي يهمك؟ يضع ما يشاء.

جلست مرغمةً فلن أستطيع التحرك؛ فجنود أبي قتادة قد انتشروا بين الحضور، والبوابة قد ألغمت كما خُطط لذلك، وثيابي قد امتلأت بالقنابل الصوتية والرصاص، قد يصطدم بي أحدهم ويكتشفون أمرنا، أرى أن عائشة تحاول الإقتراب مني:

- هيا قومي معي ألا ترغبين بمعرفة ما الذي يضعونه في فمهم؟.
- ها، نعم نعم كنت أرغب، ولكن زملائي يقولون إنّه حرام التشبه بهم.

رمقتني بنظرة متحيرة:

- لكننا هنا لمعرفة كل التفاصيل، فيجب أن نتعايش معهم تماماً لنكتب عنهم.
- افعلي ذلك عني وزوديني بما عرفتِ، أرجوك.

وقفت لدقائق قليلة متحيرة فيما قلت، وبعدها سارت صوب سارة تبادلها الحديث، وخزني أبو قتادة:

- هيا قومي وابعدي الجمهور عن القس أريده أن يكون في مرماي.
- الآن؟
- نعم الآن، هيا قومي.

رغم تعثري بعباءتي اتجهت نحوه رافعةً جزءًا منها، رفع يده ليناولني وعندما قربها من فمي، تسمرت أمامه، فهو لم يعد يقف قبالتي، لقد سقط قتيلاً.

الفصل الثالث

المشهد الثالث

الراهبة سارة

الشعور السيء حين يطوق جسدك يخنقك بشدة، وكأن هذا العالم تلاشى منه الأوكسجين ولم يعد هناك ما تتنفسه، منذُ ثلاثة أيام مضت وأنا تختلجني مشاعر وأحاسيس متضاربة، لا أدري ما سببها، هل هو شوق أم خوف من المجهول؟ لكن الآن كل ما أعرفه هو عصر الأحد يوم الله، وعليّ أن أكون حاضرة قلبياً وعقلياً، منذُ الساعة الواحدة وإلى هذه اللحظة لم أكف عن الحركة والتحضير لهذا القداس، وبالأخص سيكون عملاً مضاعفاً بعد أن يحضر المصلون، كما إن عليّ مساعدة عائشة في تقريرها الصحفي الذي ستجريه هذا اليوم مع رفاقها، يفصلنا عن الموعد نصف ساعة فقط، أفكر في الذهاب إلى قلايتي فهناك شيء ما بداخلي يجرني إليها، قدمي لوحدها بدأت تمشي بي دون هوادة، أعبر الممرات والغرف ونسائم الذكريات تصفع بي، ها أنا أقف أمام باب غرفتي، للمرة الأولى أشعر بشيء من الخوف تجاهها، أدير القفل ببطء وكأني أخاف على أحد ما نائم بداخلها من الإستيقاظ، خطوت الخطوة الأولى إلى الداخل وعيناي تسبقهما في التفتيش عن شيء ما، قادني بعض من الجنون إلى خزانتي الشاحبة، بعثرت ما فيها من أغراض حتى وصلت إلى غايتي، ذلك الصندوق الصغير، كل ذاكرتي قفلتها به، مسحته بيدي لأتحسسه، أحفظ تفاصيله وشكله، أرفع ذلك الغطاء بهدوء لتلوح لي صورة جعلت من قلبي يعتصر شوقا لحضنها، أن تجعل من أصابعك أداة للتفقد أمر منهك، لا، بل إنك تضع أثرك في كل تفاصيلهم، تحاول لمسهم واحتضانهم لكن تخونك تلك الورقة غير القابلة للاختراق، صورة بعد صورة أقبلها وأشمها، أنه لأمر غريب أن يحدث لي ذلك، الحنين يسرقني بشدة لكي أكون بينهم وأراهم وأجلس معهم على مائدة واحدة تجمعنا بحب، تقطع اتصالي الروحي بمن أحب، إحدى الراهبات تخبرني بأن

القس يحتاجني وبسرعة، فلم يعد هناك وقت والمصلون يتوافدون، لم أقل شيئاً سوى أني أومأت برأسي إيجاباً.. أحسست بقطرات حارة تتدفق من محجر عينيّ، يا يسوع.. أيها الرب.. ماذا يحدث لي؟ أعدت الصور لمكانها، أغلقت الصندوق على قلبي، مسحت دموعي بطرف جلبابي، أمسكت الصليب المعلق فوق صدري ثم نهضت، خلف الباب تركت نفسي، ما إن وصلت إلى قاعة المذبح حتى رمقني القس بنظرة أشعرتني بتقصيري، رحبت بالذين يتوافدون، من بينهم كانت بلسم واقفة بباب المذبح، أسرعت نحوها للترحيب بها، انتابني ولأول وهلة شعور بالريبة تجاهها، بعد لحظات فقط شاهدت عائشة تتجه نحونا، فلم يكن مني إلا أن أنسى بلسماً قليلاً وأهتم بها، دخلنا جميعاً إلى القداس وجلست بلسم ورفاقها في أماكن مختلفة، كما فعلت ذلك عائشة، بعد أن حضر الجميع بدأ القس بالترتيلات والأدعية، أنظر إلى الجميع من مكاني وهم في خشوع وإيمان، كأني أرى يسوع حاضراً بيننا فارداً جناحيه فوقهم، ومريم العذراء تبث في محبيها نوراً ساطعاً بأمم قلوبهم، أوشك القداس على الإنتهاء، حان وقت توزيع القربان المقدس على المصلين، وقفت بجوار القس وأنا أشاهد اللهفة بعيون الجميع، لا سيما في عيني بلسم رغم ارتباكهما، اشعر بشيء ما يقيدها ويجعل منها خائفة طيلة الوقت، أما عائشة فلم تترك هذه الفرصة تفوتها اقتربت من القس ليعطيها، حصلت على مرادها وشيء من الراحة أو شعور بالفوز قد اعتراها، ها هي بلسم تتحرك نحو القس بخطوات متثاقلة، أراها تطالعني وشيء كبير من الحزن يبتلع كل ملامحها، ما إن وقفت أمام القس، حتى سقط مقتولاً مضرجاً بالدماء، عم الذعر، صراخ من كل حدب وصوب، تجمدت أطرافي وأنا أشاهد ذلك، أعادتني من شرودي عائشة وهي تصرخ متسائلة عما

حدث، أما بلسم فلم تفعل شيئاً سوى إنـها ظلت واقفة متسمرة فوق رأس القس.

الفصل الثالث

المشهد الرابع

الصحفية عائشة

إستدرت بجسدي قليلًا لأرى أي سر قد عتقه ذلك الطوق الذي يحتل كتاج ذهبي قمة الكنيسة، وإذ بأحمد قد أقبل عليَّ بخطوات مرهقة بروح تصارع عصف الزمان:

- ها أنت أخيرًا، اعتقدتُ أنكَ سوف لن تأتي.
- ولكني قد أتيت وها أنا أمامكِ.
- لن أغفر لكَ ذلك مرة أخرى، لأنكَ لا تعطي قيمةً لعملكَ كصحفي ناجح، أجابني بضحكة خافتة.
- على رسلكِ لم أتأخر إلا قليلًا! كان عليَّ أن أصطحب فتاتي إلى بيت أهلها.
- ماذا تقصد بذلك أحمد؟، لا تقل إنكَ.
- نعم لقد خطبت الفتاة نفسها التي أعلنتُ حبي لها منذ سنوات.

توقفتُ مع نفسي لثوانٍ، كما وإن عجلة الزمن عادت بي عند محطتها الأولى؛ وقع كلماته على مسمعي أشبه بصفوة سماء اليوم التي تراقص شمس عصرها وكأنها عروس المساء بوشاحها البرتقالي المحمر ذاك المعتاد بعيون ناعسة تحمل في طَيّ جفونها حلمًا بات يهرب بخفاء، عودة مع تلك العجوز، نعم ذكرياتي كما أسميتها، لم تكن لتموت بعقلي الهرم ولا حتى بقلبي الذي شاخ بالبياض قبل أوانه، لعنتها مراتٍ كثيرة إلا إن لعني إياها لم يكن كافياً لنسيانها، وحتى الآن تراءت ببؤبؤ عينيّ بانطلاق أول صفير لها بأذني، بضعة حروف ألقاها دون قصد، خرجت وهي تتطاير عشقاً، لكنها نقلتني إلى جدار المثالية المؤطر بوهم أفكاري أنا عائشة

وزوجها، فقط مضى عامان على هجره لنا، غادرنا في أول ذكرى لنا من عقد قراننا، ظنًا منه أنه قد تحرر من أعباء يوتوبيا فكره، لم يكن إبننا علي يبصر فلسفة الحياة بعد، كان صغيرًا في حينها يُجهش باكياً كل ليلةٍ يدفن وجههُ بثيابي وكأنه يبحث عن رائحةٍ قد فقدَ أثرها بين ليلة وضحاها، لا اعرف عندها ما عليَّ فعله سوى أن أكون بطلة ليلتي بارتداء آخر ما تبقى من ثيابه، نجح الأمر لأيام ولكن عليّاً ابن أبيه طفلاً فطناً قد كشف حيلتي بسرعة، لم تكن الأولى التي كشفها بل كل التي جاءت بعدها، إلى أن أيقن أنه ليس بوسعي أن أكون الأم والأب له معاً في نهاية كل مساءٌ. انفصالنا في ذلك اليوم كان نهاية لذلك اليوم العنفواني الهائم بالجنون اللاشعوري حين صرختُ فيه فرحاً بموافقتي على الزواج به. ثوانً أو ربما أكثر قد اختزلت أمامي حياة مليئة بالإستفهامات، ابتسمتُ له قائلة:

- حقًا! ولمَ لم تخبرنا بذلك؟.

- كنت أنوي قول ذلك، لكني انتظرتُ الوقت المناسب لمفاجئتكم جميعًا.

- يا لكَ من ماكر!، إذا أنا هي الوحيدة التي تعلم الآن.

- نعم الوحيدة.

- مبارك لكَ لقد صبرت ونلت جزاء صبرك.

- الآن دعنا ننجز عملنا قبل تزاحم الحضور، وإلا لن نجد لنا ركناً لإجراء التصوير.

كنت آخر من وصل حين لَمحت بلسم وهي تلوح لنا بيدها داخل الكنيسة منذ أن عرفتها وهي لم تكن كالنساء اللواتي اعرفهن بل أكثرهن هدوءاً وتلعثماً بالعبارات، صفراء الوجه كثمرة الليمون وكأن بها داء. تمتمنا معاً ببعض

الكلمات إلى أن أتت سارة وقادتنا إلى الأماكن التي سوف نجري فيها تصويرنا، تعامل القس معنا ومبادراته الرائدة لنا في كل خطوة حطمت حاجز الإرتباك والقلق الذي اِعترى أحمد، كل شيء كان يمضي على ما يرام تمازحنا بالحديث والتقطنا صورًا للحاضرين والأطفال الذين يلعبون برياض الكنسية ولتلك المرأة المسنة التي شبكت يديها للدعاء، حرصت أن أحتفظ بتلك اللحظات التي طوقتها الابتسامات الآملة.

ضغط احمد على زر تشغيل الكاميرا بسبابته بعد أن ألقى القس أولى كلماته عن بدء طقس اليوم، شغفًا مني ورغبة دفينة في داخلي دفعت بي إلى الجلوس في المقاعد الأولى من الصفوف الأمامية أردت معرفة طبيعتهم، رمزيتهم الأزلية، كل شيء يثير فضول عقلي، وكذلك ولكي أحسن الإشراف على العمل عن قرب ولتسهيل إعطاء التعليمات لأحمد، تقدم الزائرون لنيل بركات القس و للتطعيم بالقربان المقدس، الجميع يقف بشيء من الإيمان، يمنحهم صلواته ملقياً بأفواههم القربان المقدس، أردتُ أن أتذوق ذلك مثلهم حتى أني التفت للوراء بخطوات لتشجيع بلسم لخوض ذلك إلا إنها امتنعت ولم أوافقها ذلك، لأني كنت اشعر أنها تريد ذلك وبشدة، غادرتني وكأنها تتحسر على شيء ما، وددتُ سؤالها إلا أني لم أشأ أن أتدخل بشيء، ربما ليس مسموحاً لي أن أعرفه.

لم يكن علينا نحن المسلمين أن نفعل أو نحصل على ذلك إلا أن مهنتي لطالما وقفت معي وكنت أنال ما لا يناله غيري تسللتُ من بين الحاضرين واقتربت من القس وسألته أن يمنحني بضعةً منه، فألقى بواحدة بين يدي دون أن يطعمني إياها، نظرت له لم يكن ذلك القربان سوى قطعة خبز مع كأس نبيذ من عصير العنب، عدت أدراجي إلى الوراء حيث مقعدي وأنا أفكر

حول السر الذي يزج بالجميع إلى تناول هذا الخبز، قربته إلى فمي لعلي احصل على تلك الحياة الأبدية كما يقال وما أن وصل لكي أقضمه حتى تناثرت عليه قطرات دم يغلي حرارة، صرخت جافلة من المنظر؛ فتهاوى الخبز أرضاً، حولت نظري إلى مصدر ذلك الدم الذي نال وجهي منه أيضاً وإذا بي أرى أنها دماء قس هذه الكنيسة.

كانت تقف فوق رأسه بلسم، عم هدوء لم يسبق له مثيل وكأن الحاضرين قطعت ألسنتهم داخل حناجرهم كان ذلك أشبه بالهدوء الذي يسبق العاصفة، وسرعان ما اندلعت الهمسات وتشتت حركات الشخوص الكل يتساءل عما حدث ومن الذي سقط أرضاً، تسلقت جذور الرعب إلى قلوب بعضهم وأطلقوا صرخاتهم المفزعة التي حالت بفوضى استفهامات.

تعالى صوتي بالمكان وأنا أنادي سارة واحمد، بلسم لم اعد أراها في مكانها!

- سارة ما الذي يجري؟

- مثلك يا أختاه لا اعلم ما الذي حدث ومن الذي فعل ذلك الشيء ياإلٰهي.

حاول أحمد التهدئة من روعنا قائلاً:

- لا تخافا أهدئا قليلاً.

- كيف نهدأ انظر الجميع يشعر بالذعر؟.

- يجب أن نتصل بالشرطة المحلية. فَتحت لوحة الأرقام وإذا بي ألمح من بين قائمة الأسماء اسم نور، وجال في خاطري، ربما تلك هي إشارة الله لي في منامي ذاك وقلت في نفسي:

– حمداً لله، إن نوراً وعلياً لم يأتيا معي، وإلا كان المشهد مؤلماً إلى مخيلة طفل بريء. ضغطت على الأرقام دون دراية مني، وأصوات الصراخ تملأ الكنيسة:

– الو الو.

لم أستطع الرد فالهاتف لم يعد بيدي.

الفصل السابع

المشهد الأول

الرائد باسل

في وقت الذروة وفي وسط صخب العمل، الغروب بدأ يدنو حتى اصطبغت السماء بلون الدم القاتم، تسرب إلى قلبي حينها رعشة مخيفة، أشبه برعشة أوراق الشجر حين يصمت ما حولها خوفاً من هبوب العاصفة، بعدها بلحظات حل سكون على غير العادة، إتصال كان غريباً من نوعه، لم يحوِ سوى كلمتين وتلاها صوت صراخ وعويل، قُطع الإتصال، شعور بالشك انتابنا ما الذي حصل؟، الوجوه ترمق بعضها بحيرة، قررنا أن نتبع مكان المتصل، كل منا أخذ موقعه، لم نستغرق كثيراً فقد كان في منطقة قريبة منا:

- نعم- نعم- إنها – إنها - كنيسة النجاة.

قالها أحدهم وهو يصرخ كمن وجد ضالته بعد جهد جهيد.

هبت العاصفة، قلبي لم يخطأ، أذهان الجميع تبلغ أصحابها بأنه هجوم إرهابي، لم تمر سوى ثوانٍ حتى أطلقنا نداء لكل النقاط القريبة من المنطقة، وكنا أول من خرج مع فوج الرد السريع نحو الكنيسة، تلك التي كثيراً ما مررت بها واستمعت إلى دقات أجراسها، ها هي الآن بحاجتي أنا ورفاقي، حاولنا الوصول قبل أن يقع ما لا يحمد عقباه، وبدلاً من سماع صوت الأجراس سمعنا صوت الإنفجار، اقتربنا أكثر كان المشهد مروعاً، النيران أخذت تبتلع كل ما حولها، الدخول إليها أصبح صعباً جداً، الكثير من الأبرياء محاصرون في الداخل، كان لابد لي من أن أتحرك؛ لمواجهة عاصفة الإرهاب.

أوعزت لفرقتي بالإنتشار حول الكنيسة لإيجاد منفذ آخر للدخول، لكن أيادي إخطبوط الإرهاب تحيطها من كل جانب، الصرخات تتعالى وأصوات

البنادق تمزق تلك الصرخات، وأنا أتحرق لإيجاد طريق للدخول إليهم، لم أجد غير المنفذ الذي يحيط مكان الجرس للدخول فهو الوحيد الذي لا أجد احداً بالقرب منه، تسلقت الشجرة التي كانت بجانب احد أسيجة الكنيسة، وكلي أمل بتحقيق انتصاري، كشجرة العيد حين اعلق أمنياتي عليها لأجدها قد تتحقق في صباح آخر، قفزت وتعلقت بأحد الشبابيك الصغيرة، كان منظر الرهائن وهم يجلسون على الأرض والبنادق فوق رؤوسهم شيئاً مريعاً، صوت ندي كسر صوت الخوف وقبل استمراري بالتسلق نادتني إحدى الراهبات حيث تمكنت من فتح نافذة القلاية التي اختبأت بها دون أن يشعر الإرهابيون، لتشير لي بالدخول، سارعت بالتشبث أكثر لأرمي بجسدي إلى داخل القلاية والإيعاز لفرقتي باللحاق بي، لكني في اللحظات الأخيرة أوقفتهم عن متابعتي وطلبت منهم أن يحيطوا الكنيسة والبقاء بالقرب من هذا المنفذ لحين أن أعطي لهم الإشارة، توسلت الراهبة أن لا اصدر أي ضجة وإلا سيقتلوننا، هي الوحيدة التي لم يشاهدوها لحد الآن؛ لأنها كانت تختبئ في القلاية، طمأنتها محاولاً إقناعها بالخروج من النافذة ذاتها، لكنها رفضت، أعدت المحاولة بإخبارها بأنها ستقوم بمساعدة المصابين الذين سنتمكن من إخراجهم، كانت بوادر الاقتناع ترتسم على وجهها، ولكن فمها تلعثم ببعض الكلمات حيث أشارت إلى راهبة اسمها سارة اقتادوها مع المحتجزين، أخبرتني بوجوب إنقاذها لأنها أشبه بالملاك حين يحيط جسد المؤمن ليبرأه من آلامه، طلبت منها أن تشير لي عن مكان تواجدها، قالت لي والكلمات ترتجف في فمها:

- أنظر. إنها تلك التي تحتضن النساء وتحاول أن تخفف عنهن.
- نعم كما قلت فهي كالملاك.
- اذهبي الآن لأتمكن من التحرك بحرية دون الخوف من تركِكِ خلفي.

حملتها كريشة بيضاء حتى تمكنت من إيصالها إلى النافذة وتأكدي من وصولها إلى الفرقة التي تتبعني، تسحبت ببطء شديد خلعت جزمتي حتى لا أصدر أي صوت.

الباب موارب بشكل يسمح لي بمتابعة ما يحدث دون أن اضطر لفتحه أكثر، ما هذا؟ إنّه الإرهابي نفسه الذي نبحث عنه، يا له من إخطبوط كبير فهو يمد كل أذرعه قبل أن يخطو أي خطوة، ولكني بأذن الله سأتمكن من قطعها الواحدة تلو الأخرى، اسمع صوت الكاهن وهو يخبرهم بأن أفعالهم لن تلقى إلا غضباً من الله، وان هؤلاء البشر ليسوا إلا مساكين يتوسلون بالله أن يقف بجانبهم، ليس لهم ذنب بكل ما يحصل، حاول كثيراً أن يقنعهم بترك الرهائن لكن لا حياة لمن تنادي، سمعت صوته وهو يترنم بآيات الله ومن ثم يعاود مطالبه بتركهم مقابل أن يأخذوه بدلاً عنهم، لكن الجواب جاء قاسياً، إذ باغته بإطلاقه قاتلة مزقت صلواته وتوسلاته لتسقطه قتيلاً بجانب قس آخر كان قد قتل قبله بدقائق، لم أتحمل على أثرها فقمت برشقه من بندقيتي معلقا أول أمنية على تلك الشجرة لكنها لم تتحقق حيث أصابت داعشياً كان يقف بالقرب منه و أردته قتيلاً، حل الهرج والمرج بينهم لتفاجئهم بالرصاصات المباغتة، جروا الرهائن كأنهم خراف يسوقونهم إلى مكان يسيطرون فيه أكثر، انتشروا كالمجانين يبحثون عن مصدر الإطلاقة، تابعت أبو قتادة وهو كالفأر يهرول هنا وهناك لعله يجد حفرة يختبئ فيها لكنه لم يجد سوى الراهبة سارة ليقتادها معه حتى تكون درعاً تحميه من أي شرارة قد تصيبه، لم أنسَ ما أوصتني به الراهبة التي أنقذتها، فسارة هي الملاك الذي يطمئن قلوب المصلين.

شعرت بتخبط الإرهابيين فالخوف يملأ قلوبهم وأصوات الإطلاقات في الخارج تتعالى، وهم محاصرون في الداخل يحاولون تصفية الرهائن الواحد تلو الآخر، أبو قتادة يقترب أكثر من القلاية التي أنا فيها ومعه سارة، يجرها أينما ذهب أرى أيضاً امرأة أخرى تسير بجنبه تتشح بالسواد، لكن لا يبدو عليها إنها من الرهائن، أصبحوا بالقرب مني، إن مددت يدي سأتمكن منهم، هل اعلق أمنية أخرى؟ أم ستأتي خاطئة كالتي قبلها؟ دفعت الباب بخفة، ارتميت تحت طاولة كبيرة مغطاة بشرشف أبيض متدلٍ على أطرافها كانت مركونة بالقرب من الباب، فتاة في العقد الثالث من عمرها وجدتها تختبئ هي أيضا تحتها، تقرفصت بجسدها النحيل وهو يرتعش، هذا الوجه ليس بغريب عني، تمعنت النظر رغم توتري، الكامرة ذاتها مازالت معلقة بحبل يؤطر رقبتها، إزداد خوفها من الذي استمر يصرخ والراهبة تتوسل إليه أن يتركها، ماذا افعل؟ لن أتمكن من الخروج مرة أخرى، كيف سأنبهها لوجودي دون أن تفزع وتصرخ؟ وهل ستطيعني أم ستعاند كما في ذلك اليوم؟ وضعت يدي على فمها:

- **لا تصرخي، فأنا أحاول مساعدتكم.**

أحسست بعدم قدرتها على الحركة، لقد تجمدت من الخوف:

- **أرجوكِ، أريد أن تساعديني، لا أن تفقدي وعيك.**
- **نعم نعم معك.**
- **سأخرجك من هنا لا تقلقي.**
- **لا لا كيف أخرج وأترك سارة بين أيديهم؟ أريد أن تساعدها للخروج بل تساعد الجميع.**

- سأفعل ما بوسعي، لكن أخبريني من المرأة ذات الرداء الأسود التي تسير مع الإرهابي.
- إنها زوجته_ نعم زوجة أبي قتادة_ لقد خدعتنا.
- كيف خدعتكم؟
- أخبرتنا أنها تريد أن تستطلع مع رفاقها عن تراث الكنيسة، ونحن والراهبة ساعدناها بذلك، لكننا وقعنا في فخ كبير.
- فخ كبير، بحق إنه فخ، لكني سأحاول جهدي للتخلص منهم.
- انتبه فهو مدجج بالسلاح.

درت وجهي عنها وأنا استمع لوقع كلماتها وتحذيراتها رغم إصابتها الشديدة، فهي لم تخرج من بين يديه إلا وقد أصابها من الخدوش والرضوض ما يجعلها تمنعني من التوغل أكثر، لم يكن لدي الوقت لإسعافها فقط طلبت منها التحرك نحو القلاية فهي أكثر أماناً من هنا، اختبأت كما طلبت، حمدتُ الله إنها استجابت لطلبي، في هذه اللحظة بدأت معركتي الحقيقية، أبو قتادة وكم هائل من الإرهابيين في مواجهتي، لأجل اصطيادهم احتاج إلى تلك الأنثى ذات الوجه الشاحب والرداء الأسود.

الفصل السابع

المشهد الثاني

الصحفية عائشة

لم يكن للساني أن ينبس بشيء بعد أن شعرت بفوهة سلاحه قد نبتت نهايتها براسي، أمسك بيدي وشدها بقوة خلف ظهري حين أخذ الهاتف مني.

- ماذا تظنين نفسكِ فاعلة أيتها الفاسقة؟.

تصلبت بأرضي خوفًا رفعتُ عيني لأراه، لم يكن سوى غَمامة سوداء، حاولت أن أسقط بناظري بأي شيء ربما يكشفه لي؛ وقعت عيناي على ثغرات هذه الغمامة إلا وهي عيناه كانتا بركاناً توسدَ بظلمة هذا الجسد، وما إن جاريته حتى رمقني بنظرة كادت أن تقتلني بمكاني قبل أن تنال مني رصاصات سلاحه، امسكتُ برباطة جأشي ونبرات صوتي ترتجف:

- بلسم ماذا يحدث هنا، أليس من المفترض أن يكونوا باحثينَ؟

قاطعني ضاحكًا باستخفاف محولاً نظراته نحو بلسم التي كانت تقف بجواره كان واضحًا أنها حاضرة معنا بجسدها فقط لا بعقلها.

- هيا أخبريها بالحقيقة، ألم تصبحا رفيقتين؟

- وعن أي حقيقة يتكلم، بلسم؟ هيا تكلمي!

- يا لكِ من غبية أيتها الصحفية وهل يبدو شكلنا كهؤلاء الكافرين أمثالك؟.

- كيف تجرؤ على ذلك؟

- اخرسي وإلا أفرغت حشوته براسكِ. لأخبركِ أنا، إنها زوجتي.

- ماذا زوجتكَ؟

صدمتُ عندما نطق بأنها زوجته، نظرت إلى بلسم ولا أعرف هل استنجد بها لكي تخلصني من قبضته أم احتقرها على فعلتها هذه والإيقاع بنا؟، وما كان لسارة ألا أن تتوسل إليه لكي يتركني.

- هل عليَّ ألاستماع إلى كافرة مثلكِ؟!

لم يردعها حديثه وإنما أعلنت التكفير بهم مستنجدة بعيسى النبي، كانت كلماتها الحركة التي أوقدت شعور الهلع والهياج بنفوس الشخوص الحاضرة حين أطبق أحدهم على فمها بيده ليسكتها، أدركوا حينها طبيعة ما هم به الآن، لم يكن موقفاً عابرًا ولا ثائرًا موجهًا نحو شخص ما، بل هجومًا إرهابيا منظماً، الروح أغلى من أن تسقط هنا حتى وإن كان روضة من رياض الجنة طالما كان الانقياد نحو الموت جبرًا، انقادوا بخطوات غير محسوبة مرعبة إلى البوابة الرئيسة للكنيسة إلا إنهم قد صدوا خروجهم بانفجار قوي دوى صفيره بصيوان آذان الجميع، اهتزت له الكنيسة وتناثر زجاج النوافذ علينا، ممطراً بنا دماً بدلاً من الماء، تعالت الصرخات والنبض توحد حين علا صوته على صمت الجدران ووهن الأبدان، وعيت على صوْت نداء أكان صوْت بلسم هذا أم سارة؟ نعم كان صوت سارة وهي تصرخ بالجميع للتوجه إلى الغرف للإحتماء ولكن أين هي؟ الدخان الذي خلفه الإنفجار أعدم مجال الرؤية بوضوح، إلا إني شعرت بعدم إمساك ذلك الحقير بي ربما كان ليكون شعوري هذا أن ينتهي لولا تحركات واندفاعات الجميع التي رمت بي بالقرب من أحد الأركان العمودية التي نُقشت برسوم الملائكة الصغار معلقاً عليها ستائر بيضاء لكنها قد ختمت بالدماء.

نهضت لكي أحتمي بها لم يكن ليسعني النهوض بسرعة حين شعرت بألم يغزو ساقي اليمنى بزجاجة كبيرة نبتت بقوة، أزلتها بعد أن كتمت على

صوتي بالوشاح الذي على عنقي، استلقيت بشكل جانبي وسحبت نفسي نحوه استطعت أن اركن في نهايته بجسدي المرتعش خوفاً، صككت أسناني وأنا أضع يدي على أذني حين تراشقت بنادق الجماعة الإرهابية على البعض لإسكاتهم بالموت واعتقال الآخرين وَصفهم كرهائن، لم تكن لِتكف عيني عن البحث وإيجاد سارة واحمد لعليَّ أقع بخطوات أحدهم، كنت أرى الجميع ولم أكن أعلم أن هذا ما سوف يكون بانتظاري، مشهد مروع، قطيع من الغربان قد حطَ رحاله بحقل صاحبه قد مات، الكثير من الغَمائم السوداء التي تسلط صعق سحابها بالأرض.

نادى أبو قتادة بصوته الغليظ، هذا هو اسمه فالجميع يناديه به:

- هيا أحضروا جميع هؤلاء الرهبان الذين يدعونَ أنهم على الدين الصحيح، سوف يعلمون حقيقة دينهم هذا، ضعوهم في المقدمة.

لم يكن الأمر يتحمله من صقل روحه بالدين مما أثارَ حفيظة أحد الكهنة نَدَّد بهم ببعض الكلمات.

- ويحكَ، ماذا تقول، أي دين قد جاء بما تقوله الآن؟ وأي شرعًا يدعوكم بفعلتكم هذه؟ ما جئتم به ليس سوى باطل لم ينزل به سلطان.

لم يكن لأبي قتادة أن يتقبل ذلك؛ فأسقطه بضربة احتلت وسط جبينه الطاهرة، مما أظهر استهجان سارة لما رأته:

- حتى وأن اسكت صوْت الجسد برصاصة باردة منكَ، لن تستطيع إسكات غضب صاحب من أعطى الروح.

– ألم أقل لكم أن تقتلوا هذه الكافرة؟

قاطعه أحدهم:

– ليكون لي شرف الجنة، إترك أمرها لي.

– خذها، إنها ملككَ الآن.

– شكراً سيدي.

– سوف ينال منكَ غضب الله وروحه المسيح. أتركني وشأني.

– لتنقذكِ تلك الروح إذن.

طالع سارة كذئب نال طريدته بعد محاولات فاشلة عدة، صفعها على وجنتها، وساقها بقوة إليه حين رفضته، إلا أنه ما برحَ عنها إلا وهو ممسك بذقنها بقوة لم تستطع تحريك جسدها رغم صراعها معه حتى انتزع طرحتها من على رأسها وتدلى شعرها الذهبي على أكتافها تبلد جسدها وخار بسقوط طرحتها، اندفعتُ بغضب ولكن سرعان ما تجمدت خطواتي حالما أدركت أن النتيجة سوف تكون واحدة، تحولت دعوتي إلى الله وطلبي بإنقاذها وغليان دمي عليها إلى رصاصة مجهولة انغرست برأس ذاك القذر، لم يعرف أحدهم مصدرها، ولكنها كانت كفيلة بقَلب الأوضاع وزعزعة صفوة قوتهم، طلب أبو قتادة البحث عن الذي أطلقها نحوه لولا انحرافها وهو يَنقاد بسارة أمامه:

– قوموا بتفتيش جميع الرهائن وابحثوا في كل مكان هيا، وأنتِ يا بلسم ابحثي عن تلك الفاسقة ربما تكون هي من فعلتها.

– حسنًا، كما تريد.

كنتُ أنا الفاسقة بنظره مما جعلني احبس أنفاسي بكل ما أوتيت من قوة حالما أصبحوا على مقربة من مكان اختبائي، اقتربت بلسم من الستائر وهي تحمل السلاح بيدها أزاحت إحداها قليلًا، تسارعت نبضات قلبي نشفَ ريقي وأنا أتكور على نفسي مما جعلها تشعر بشيء ما خلفَ هذا العمود، ما أن دَنت منه حتى تلاقت عيناي بعينيها، أشرت بسبابتي لها ألا تتفوه بشيء وقلت لها بنبرة تكسرت حروفها رعبًا:

- لا يمكنكِ فعل هذا بي يا بلسم.

بدا على شفتيها شيء من الابتسامة، لم أملك وقتاً لتفسيرها حين تراجعت بسرعة نحو أبي قتادة، شعرت أني سوف أفارق الحياة وأترك عليّاً وحيداً كما تركني أبوه وحيدةً حالما تخبره بمكاني هذا، تَكلمت بصوتً عالٍ، قائلة له:

- أبو قتادة لا أعتقد أنها هي، من أين لها أن تحصل على السلاح تلك الفاسقة لن تجرأ على فعل ذلك حتى، كما وإن ليس لها أثر هنا، ربما تكون قد ماتت أو تختبئ بين الآخرين.
- واصلي البحث عنها وحاولي إيجادها بسرعة.
- دعَ الأمر لي لن أدعها تفلت منا.

لم اصدق وقع كلماتها تلك، ولما فعلت ذلك طالما كانت هي معهم، إلا أني علمت أنّه لا يزال هناك بريق من الرحمة والإنسانية فيها تنزلت بها عليّ، تشبثت بحبال هذه الفرصة طالما إنها لن تدلي بما تعرفه عن اختبائي في الوقت الراهن، زحفت بجسدي قليلاً وأنا جالسة إلى إحدى الغرف القريبة من العمود لا اعرف ما فيها سوى إنها مظلمة؛ فكل ما أردته النجاة بكل الطرق

الممكنة تراءت أمامي طاولة قد تراصفت فوقها الكثير من الأغطية لم أميزها جيداً. تسللت تحتها وارتميت لكي ارتاح واستعيد أنفاسي بعض الشيء ولعليَّ أسعف ساقي والجروح التي مُلئت بجسدي جراء الإنفجار الذي حدث، ابتسمت بشيء من الوهن حين نظرت لوهلة إلى نفسي والكاميرا ما تزال معي شيئاً عجيباً، إنها بقيت ملتصقة بي رغم كل ما حصل، فجأةً وبدون سابق إنذار كتمَ أحدهم على فمي بقوة، تصلبت حركتي تبلدت أطرافي، توقف عندي الزمن ونهايتي قد أوشكت على الانتهاء مهما حاولت الهروب منها، إقترب برأسه من أذني وهمس لي ببعض الكلمات، جفلتُ لها حين طلب مني أن اهدأ قليلًا وأن لا اصرخ وأثير الإنتباه، أزحت يده بقوة وأدَرتُ وجهي لأراه وإذا به الرائد، نعم هذا ما سمعته منه حين قال إنه يريد المساعدة، بين فرحتي بأن الله قد استجاب مناجاة الكثير منا وبين شعوري بأني لازلت بقلب الحدث جعلني أبوح له بكل ما حصل معنا بلا هوادة ومن الذي كان خلفَ هذه المجزرة البشرية:

- انتظر قليلًا، هناك الكثير منهم وقد توغلوا في جميع الأنحاء، كما وإنهم يحملون الكثير من الأسلحة والذخيرة.

- وهل أدعهم يقتلون الآخرين هكذا ببساطة؟.

- لا ليس هذا ما اقصده، عليكَ بوضع خطة لذلك وإلا لن تنجو من قبضتهم إن شعروا بتواجدكَ هنا.

- لا تقلقي أنا مستعد لذلك، كل ما عليكِ فعله أن تتوجهي إلى الغرفة المجاورة والاحتماء بها إلى أن أعود.

الفصل الرابع

المشهد الثالث

الإرهابية بلسم

الروح التي كانت تحيط بالمصلين وتغمس في فمهم لقيمات المحبة سقطت أرضاً، فأحاطتها روح الملاك الذي طالما رأيته يعتلي قبة الكنيسة لترفع القس من أرضه بعد إطلاقة سوداء مزقت جبينه الطاهر، لم اشعر بجسدي حينها، مشهد الموت والروح وهي ترفع كانت كفيلة بأن تجعلني كمسمار دق في نعش الخلاص، هرج ومرج، سارة تصرخ وعائشة تمسك بهاتفها وتحاول تهدئة الباقين، وأنا لم اشعر إلا وأبو قتادة يركلني بقدميه:

- هيا تحركي.

التفت صوب الناس المتجمهرة بالقرب من القس فرأيت الذعر والخوف وصراخ أبي قتادة يملأ المكان، عائشة كانت من ضمنهم ولكنها قد جُنت حين سلبوا منها هاتفها ليرمى بعيداً ولم ينل من هذا الحدث غير التحطم والإنشطار إلى أجزاء صغيرة، أخرجت سلاحي من تحت عباءتي محاولة تصويبه بوجه سارة لكن عائشة ضربتني بقوة على يدي حتى أسقطت السلاح أرضاً، فجاءها أبو قتادة بسلاحه الأسود بعد أن لوى ذراعها، تمالكت نفسي وأسرعت لحمل سلاحي مرة أخرى ولكن عائشة لم تصدق فعلي، نظراتها كانت تخبرني بحيرتها الشديدة كلماتها المتتابعة تصطدم ببعضها معلنة جزعها وندمها للوثوق بي، سارة الملاك ذو اليد البيضاء يُكتم على فمها وتجر كما يجر الخراف من قرونهم، كان مشهداً مؤلماً أعادني لذكرى لا ارغب باسترجاعها، حطم كل أحلامي وسلب إرادتي بالكامل ذلك اليوم الذي تعرفت فيه على أبي قتادة كان أشبه بالدخول إلى وادي مظلم مقفر، حين طُرق الباب بعنف كطرقة من يبلغنا بموت الروح بالجسد ليدخل الرعب إلى قلوبنا، لم يجد أبي ذو الشعر الأشيب والقلب الجلد من بد غير أن يفتح

الباب ليرى من الذي جن ليطرُق هكذا، لكنه لم يلحق فطلقة الموت صوب رأسه أردته قتيلاً ومن بعده أمي التي لم تلحق لتغطي رأسها بوشاحها الأبيض، كان المشهد قاسياً جداً، الدماء تملأ بياض أجسادهم وقلوبهم، الظلم يتفاخر بعضلاته الخائرة وأنا كحمامة مجروحة قابعة وسط منزلها تنتظر من جلادها قطع رأسها، لم أعِ ماذا أفعل أمام جثتين هامدتين وأنا بمفردي. لا خيار أمامي، إما الموت وإما الرحيل معهم، فكان مصيري كمصير سارة أُجَر من ضفيرتي السوداء وأُسحَب مرغمة للصعود معهم والرحيل إلى عالم مجهول ليس فيه غير الغوص إلى أعماق الأرض حيث هناك تعودت على طبيعة الحياة التي يعيشونها رغماً عني، أخذت بشرتي تزداد شحوباً وتقاسيم وجهي تمتلئ بخطوط القسوة، ضفيرتي التي كنت أعقدها خلف ظهري تقطعت وعُقد بدل عنها قراني على أبي قتادة تحت تأثير الكلام المنمق والحياة الآخرة في جنة الله التي يجب أن نصلها بالتخلص من الكفار الذين يرتدون اللباس الأبيض المخملي وهو الذي قد تزوج قبلي الكثير من النساء لرغبته بتطبيق الشرع حسب قوله، هذه الحياة التي أعيشها الآن لم اخترها أنا، بل الظلم اختارها لي، ما ذنبي وما ذنب سارة؟ نحن الاثنتان قد جررنا كخراف جاهزة للذبح، ولكني الآن مرغمة أن أكون أنا الجلاد في هذه اللحظة، ولكن بمن سأبدأ؟ درت حولي كثيرا ودار أبو قتادة بسارة أكثر بعد أن ترك عائشة مرمية متألمة من كدماتها التي ملأت جسدها، فهو الآن يجرها معه كدرع لحماية جسده العفن بعد إن جاءته إطلاقة خاطئة لا يعرف مصدرها أردت من حاول اغتصاب البراءة قتيلاً منهية بذلك محاولات أول يد تمتد إلى الملاك الطاهر بالقطع، بقيت إلى جانبه أتلقى الأوامر بالبحث عن عائشة التي اختفت، لم أكن ارغب بالبحث

عنها يوجد لدي الكثير من المهام التي أفضل القيام بها حل الهرج والمرج حين فجر مدخل الكنيسة حينها تجمع المصلون في إحدى الغرف، رميت بعض القنابل الصوتية عليهم وبين رمية وأخرى شعرت بحركة خلف إحدى الستائر، شعور غريب انتابني لابد إنها عائشة قد تقرفصت كقطة صغيرة خائفة من جلادها، نعم إنها هي رمقتها بنظرات جعلتها ترتعش خوفاً متوسلة تركها لعل لحظة لقائنا الأول تشفع لها، بالفعل تركت الستائر لتغطي جسدها المتمرد مطمئنة نفسي قبل عائشة أني على الأقل لن اقتل من قبلت وجنتي بحب، القطة الصغيرة تختفي في جحر كان للمصلين مكان اطمئنان، يا ترى هل ستبقى بأمان؟

الفصل الرابع

المشهد الرابع

أبو قتادة الإرهابي

حرر الموتُ الكاهن الذي زحفت حسراته الأخيرة من معبد نجاة واستقرت بين جثث أمثاله الصفويين والروافض والمرتدين التي تملأ شوارع بغداد، كانت الرصاصة التي أطلقت عليه قد أحدثت ملحمة مصغّرة، تمكن أبطال الإسلام من خلالها بالسيطرة المطلقة على كل الكفرة الذين يتواجدون داخل الكنيسة، بالإضافة إلى تهديم عدد من الأصنام التي كانت شاهدةً على كفرهم، واصلنا إحكام السيطرة على الرهائن، وبما تبقّى لهم من حياة لا يعرفون مصيرها؛ تم نقلهم إلى زوايا نكون فيها بمأمن من غدر الأعداء أمثال الشرطة أو الجيش الصفوي، كانت هناك الكثير من الزوايا المظلمة التي عكرت صفوة ظلامها ضوء الشموع المنتشرة بإنسجام منظم، وكان هناك الكثير من الخوف في وجوه أولئك النصارى ينبأهم بموت مؤجل يتعاظم تحقيقه كل لحظة، بعد دقائق من سيطرتنا الكاملة على المكان، دب صمت رهيب، حتى أنَّهُ يمكنك من سماع صوت أكياس النايلون الكئيبة وجرائد الأخبار الشريرة وهي تطير بالهواء، مع صرخات توجع مكتومة لنصارى جرحى قريبين مني، وأصوات نيران مازالت تلتهم أحد الأبواب التي فجرناها عند مدخل الكنيسة، كانت ذات وقع مدهش، يحثني لهيبها الذي ألفه في أعماقي على وجوب سرعة الإنتقام من هؤلاء الكفرة، رغم إنني أعرف أن النار التي في داخلي لن تهدأ ما لم أقطع دابر الصفويين والنصارى على حد سواء.

كانت هناك محاولات للمقاومة من بعض النصارى الضعفاء، إلاّ إننا كنا لها بالمرصاد، فأيدنا الله بتوفيقه وجعلنا نفطن لها قبل أن تفتك بنا، كانت نظرات جنودي ملؤها الانتصار والانتقام مع بعض الخوف، إلا نظرات زوجتي وتأملاتها كنت أواجه صعوبة في تفسيرها وفهمها.

ولكي نؤمن ظهورنا؛ أعطيت أوامر لبعض القناصين على التمركز في أماكن مختلفة وصد أي هدف متحرك أو ثابت يتربص بنا من الباحة الخارجية للكنيسة أو الشارع، كنت قلقاً من الغدر، ولقد بدا لي أكثر من مرة أن أحداً ما يكّمن لي خلف شيء ما، وإنّه سيطلق عليَّ النار في أي لحظة، قد يكون من خلف باب أو غرفة مظلمة أو قطعة أثاث أو حتى السقف، كانت لحظات مشحونة بالموت من دون أي شك، وكنتُ في كل لحظة أدير رأسي وأكمل المسير إلى الخلف، كأني أمشي برأس مقلوب، وعندما أطمئن تماما أعدل من مشيتي، ثم أعيد الكرة مرة أخرى وهكذا، حتى توقفت عندما سمعت صوتاً قوياً يأتيني من جانب لم أميزه بعد، تبع ذلك رصاصة كادت أن تنهى سجلي، ألتفت على إثرها يميناً ويساراً، كان الرصاصة التي أطلقت نحوي قد تخطتني واستقرت بالمجاهد الذي أوكلت إليه مهمة قتل الشقراء النصرانية، محدثةً شدخاً عميقاً في رأسه، تطايرت إثرها قطع من جمجمته بغيرِ وجهة، فأردته قتيلاً لتعانق روحه شقراوات الجنة.

وجهت جنودي لتعقب رقعة الموت التي تتربصني بمكان قريب مني، كلفت زوجتي في البحث عن المرأة التي لا يبدو شكلها نصرانياً، كنت أشك في أمرها، وتوقعتها هي من أطلقت النار، رعشة سرت في جسدي لم تستقر حتى آخر أعماقي، كأنها الموجة التي تصنعها الحجرة الصغيرة التي يرميها الطفل وسط البحيرة، سيطر عليَّ انفعال شديد كدتُ بسببه أفقد صوابي وأطلق النار على كل من كان أمامي، بدأت الأفكار تحرق رأسي من الداخل بصمتٍ، وتتخالط الأسئلة عن مصيرنا المجهول كأنها دوامة مخيفة، إلى أين يقودنا هذا الطريق في هذه الحياة الدّهماء؟ وهل سننجو من هذه المحرقة المترامية الأطراف؟

مع دويّ صيحات الجماعة المجاهدين اختلطت أصوات النصارى الخائفين والمرعوبين، كل واحد منّهم يدعو صاحبه أن يكون بجنبه أو أن يأخذ مكاناً أكثر أمناً.

كنت متوترا وخائفاً من رصاصة أخرى قد تستقر هذه المرة في رأسي، فأحكمت قبضتي على شعر الفتاة النصرانية التي كان ممسكًا بها الشهيد، واتخذتها درعاً يحميني، كانت خائفة لم تقاوم طويلاً، اسمعها تصرخ بلا صوت سوى بعض التنهدات والدموع، كان شعرها بلون الذهب، وبشرتها بيضاء أنصع من نوايا الأطفال، لوهلة حلمت بأنها جاريتي، تسقيني شراباً معتقاً، لم أذق مثله في حياتي، فأرمي الكأس جانباً وأترك يدي تسبح في شعرها.

حقا؛ لا أعرف كم مضى من الوقت وأنا أحلم بتلك النصرانية، ربما بالكيفية ذاتها التي أجهل فيها كم تبقّى من عمري، لكن وأنا أحرر إصبعي الذي تشبث في زناد المسدس الذي توغلت فوهته في عنق النصرانية أدركت أن كل ما تيقنته في تلك اللحظة كان كومة من خيبات الأمل، ورصيداً هائلاً من الحزن، وعزلة طويلة قضيتها، ووحشة ليس لها حدود، متمنيًا، إلاّ أكون آخر من يفكر فيهم الله؛ لإنقاذه من هذه الغابة المظلمة.

الفصل السابع

المشهد الخامس

الراهبة سارة

تبعثرت ملامحي ما إن مرت تلك الرصاصة من جانبي لتستقر برأس القس، شعرت بشهقة أمنا مريم وهي ترى هؤلاء الرجال يندفعون إلى الداخل حاملين الموت معهم، أجنحة الملائكة التي كانت ترف بفرح منذ قليل أصبحت تأخذ دور المهرج لإسكات الأطفال الصغار، أما الرب فرأيته يبتسم فاتحاً ذراعيه أكثر مما سبق، كأنها دعوة للحضور إليه والعيش قربه للأبد، صرخة عائشة كأنها صفعة قوية على خدي المصفر لتعيدني إلى ما يحدث، الهاتف مهشم لقطع بجانبها، فذلك الرجل الضخم ذو اللحية الكثيفة قد رمى بها أرضاً بعدما أبرحها ضرباً، أفواه البنادق مصوبة تجاه المصلين لإجبارهم على الخضوع لهم، بلسم تلك المرأة الغامضة، إنها واحدة منهم، فها هي تساعد هؤلاء على قتلنا، لم فعلت ذلك بعدما احتويناها بالصدق والمحبة؟ أهي مجبرة على ذلك أم إنها فعلاً خائنة؟

رحتُ اهدأ من روع الأطفال محتضنة الجميع لعلي أحافظ على حياة بعضهم، أشتد الفزع بعدما انفجرت تلك العبوة الناسفة في مدخل الكنيسة، لتصيب من يقربها، بين لحظة وأخرى أصواتهم المملوءة بالكره تكبر، يسحبني من طرحتي ليرميها على الأرض، يشدني من يدي نحوه لينظر إلى وجهي ويتصفح معانيه، عيناه السوداوان يتطاير منهما الشرر، كنت أرى من خلالهما أصوات النساء اللواتي انتزع منهن شرفهن وحياتهن، كما سرق من أجساد الأطفال أرواحهم ليرديهم مجهولي الهوية، أنظر له وهو يقربني منه، أرتجف بين يده كأني سعفة نخلة تقاوم الريح الهائجة، ثم يرميني إلى ذلك الذي يقربه، كي يتمتع بي، شعرت بالموت قد بدأ يتسرب إلى أعماقي وينتشر في أرجاء جسدي، وهذا الآخر ينظر إلي بشهوة متفحصاً هذا الكم الهائل من الخوف والشحوب، يضع يده القذرة على وجهي البارد، أحاول مقاومته إلا إنه كان قد احكم قبضته على يديّ، يحاول تجريدي إلا أن تلك

الرصاصة المجهولة حررتني منه بعد أن جعلت من رأسه أشلاء متناثرة، تزلزلت جدران الكنيسة من أصوات هؤلاء الجبناء، الذين سرت بداخلهم رعشة الموت والخوف، أجول بنظري بسرعة أحاول أن أرى الجميع، عائشة تلك الفتاة ما الذي حل بها يا ترى؟، ما أن تنفست حتى جرني من شعري ذلك الذي يبدو أسداً بعين أنصاره الخونة، إلا إنّه في الحقيقة جرذ خائف، يجعل من جسدي الواهن درعاً بشرياً ليحتمي من طلقات الموت المتربصة به، عجت الفوضى بشكل كبير، طلقات هوجاء من ذوي اللباس الأسود، تناثرت بأجساد الكثير من المصلين والأطفال الصغار، صرخات الجرحى وتراتيلهم تخترقني لتذيب قلبي العاجز عن مساعدتهم سوى بالدعوات، يشد على عنقي بقوة، أتنفس بصعوبة بالغة، يصرخ ويشتم، يصيح بهذا وذاك ليبحثوا عن يد الموت المحاطة بهم، أرتل بأدعية الخلاص، أستنجد بالرب يسوع لإنقاذ الجميع، يديرني نحوه لينظر إلي غارقاً في دوامة التفكير، ليتني أموت ولا أبقى بين يدين ملطختين بدماء الأبرياء، ثم حدث ما لم يكن يتوقعه الإرهابيون، حيث دخلت مجموعة من الجنود لترشق عليهم الرصاص بدقة فتأخذهم واحداً تلو الأخر، أما المدعو أبو قتادة كمجنون يجر بي من مكان لآخر، من زاوية أخرى أرى ضابطاً يقف بمكان يمكنه من الإختباء جيداً، يحاول توصيل رسالة لي بالابتعاد قليلاً عن جسده، أتلوى بجسدي محاولة إعطاء المخلص الفرصة المناسبة، يصوب سلاحه، يده توشك على ضغط الزناد، أمسك بالصليب المعلق على رقبتي، أغمض عيني لتتهاوى عليّ ذكريات حياتي بأكملها، ترتخي قبضة يدي، موجة من البرد جعلتني أرتجف ثم أسقط نصف فاقدة للوعي، جسدي الثقيل أصبح عبئاً على حاملي، رمى بي، بعدما ناداه أحدهم، وقفت بصعوبة كبيرة للسير نحو ذلك

الضابط، كانت ابتسامته بإقترابي منه هي آخر ما رأيته بعدما تلاشى قلبي، برصاصة غادرة من الخلف.

الفصل الخامس

المشهد الأول

الصحفية عائشة

استحوذت خيوط الظلام قلب الكنيسة، تبدد نورها بجثث الموتى الثائرة برائحة دمائها باحثةً عن المستأثر لها، انقضت دقائق على ذهابهِ حتى إنني لم أتمكن من معرفة اسمه ربما كنتُ أريد أن أشكره باسمهِ حالما يعود وينقذني، لكن إلى الآن أنا هاهنا أنطوي بجسدي، فصوت الرصاص ينخر عظامي، ملأ جسدي ثقوبًا لا أثر لها سوى بأحشائي، تمزق داخلي بلا رحمة، حملتُ شعور الجميع بغرفة مظلمة تكاد ظلمتها تسرق بصيرة قلبي، باردة ببرودة تلك الأجساد الهامدة، أرتعش بشفاهٍ قد جفت رطوبتها، وددتُ سماع صوته كي أتنهد قليلًا وتَهتد هذه الهلوسة المستَصرخة بموتي تخترق أذني حتى مع إحكام كلتا يديّ، تشتت ذهني حول ما إن كنت أنا من تتحرك بمكانها أم إن الأشياء من حولي أصبحت تأخذ حيزاً أكبر حين تلبستها هذه الأرواح؟ فوجئتُ بهطول دمعتي وهي تغتسل بخطايا الانفجار بما اقترفه بوجهي الملطخ بالدماء والغبار لكنها سرعان ما أفقدتها الغرفة رونقها أثلجت وسقطت هي الأخرى ميتة بين شفتيَّ.

لوهلة حلَ الهدوء حينها شعرت أنها كانت آخر الرصاصات التي نالت مني هذه المرة، لم أسمع بعدها صوتاً لذلك الضابط وأبي قتادة.

_ الله أكبر، الله أكبر.

تكبيرات مرعبة تزف إلي نذير سوء معلنة عن موت أملي، حبستُ أنفاسي بطرحتي، ترادف الدمع بعيني دفعة واحدة، بلا توقف، لم أبالِ بعدها لما سوف يحدث، فقدتُ صوابي اتكأت على الجدار لأرى أين ستأخذني أطلالها الموحشة؟، لا بد من وجود مخرجٍ، نعم هو ذاته الذي دخل من خلاله الضابط إلا إن الموت وضعني أمام حقيقةَ عشقه لهذا الهلع والخوف الذي يربض بأعماقي حين انقضَ على تخبط قدمي بانفجارٍ آخر أيقظَ الجنون

الذي يسكنني؛ فظلام أبي قتادة ابتلع آخر بقعةَ نجاة للمحتجزين كانت الحجرة الصغيرة التي لا تتجاوز مساحتها سوى القليل من السنتيمترات اختبأ عندها الكثير من الأبرياء، تواجدهم فيها كان انسلاخًا حتميًا لأرواحهم، أيقنت أنه لا يريد أن يبقي على أحد منا وأن لا يترك للقوات العسكرية سوى الأشلاء المتفحمة هذا هو الإنتصار الحقيقي له، التجرد من كل شيء.

– أنت توجه حيث تلك الأعمدة وتفقد المكان لا بد من وجود منفذٍ، جعل دخول هذا العسكري إلينا أمرًا سهلًا.

كان ذلك واضحًا كوضوح الشمس في وضح النهار حين سمعت نَبرات صوتهِ ترج الأبدان، انتابتني الهستيريا، أكان يقصد مكان مكوثي؟ توغلتُ تحت الطاولة ذات الأغطية البيضاء باتت وكأنها الكفن الذي سوف يلفني وهي القبر الذي سوف يحتضنني بعد إمساكه بي.

يقترب صوت طقطقة حذائه ويقترب معه أجلي، انتظرته بعد أن استسلمت له وأنا أتذوق عذاب الهروب منه، مع كل خطوة يخطوها كنتُ أسحب جسدي للخلف لعلي أصهُر نفسي بالجدار الذي يلازمني هو أيضاً الإختباء تحت الطاولة.

شعرت بأن الزمن يعود أدراجه ولكن هذه المرة بطريقة مختلفة توسط ببؤبؤ عيني صغيري علي حين كان يختبئ تحت أي شيءٍ قد يراه ليكون له ملجأ يعانق فزعه وتمرده أثناء المشاجرات التي أخوضها أنا وأبوه، لم يكن ليراني ولو لمرة واحدة أمًا جيدة لطفلنا وهذا ما كان نهاية لطريقنا معًا، الآن علمت جيدًا أن ولدي لم يكن يرغب بأن نمضي بإرادتنا إلى نهاية بائسة، تُكشف الحقائق دائمًا في النهايات وها أنا الآن أكتشف المنفذ الوحيد للخروج أثناء تفقد هذا الإرهابي الغرفة.

– سيدي هنالك مخرج صغير يؤدي إلى الخارج، لا بد إن ذلك الجندي قد مرَ من خلاله.

الفصل الخامس

المشهد الثاني

أبو قتادة الإرهابي

مرت ساعتان أو أكثر من القلق والخوف، فأصوات سيارات الشرطة في الخارج تشكل الرعب الأول، بينما إنطلاق رصاص الكمائن المفاجئ هو الآخر يزيد الأمر سوءًا عبر الكثير من الغرف المظلمة، بدأ الليل يزحف نحو بغداد بردائه الثقيل، وبدأت الأجواء أكثر توتراً وتخبطاً، كنت أشعر بالشرطة وهم يحكمون طوقهم على الكنيسة في الخارج، وكلما تقدموا أكثر كانت ترتفع أصوات النصارى بترانيم ملغزة، ومع هذا الشعور بدأت اتيقن أن ما من مفرٍ للخلاص، أمرت إثنين من المجاهدين بمراقبة تصرفات النصرانيين لئلا تصدر حماقة من أحدهم، وبعدها سرت عدة خطوات في الظلام، كان صوت خطواتي مسموعًا وكنت أشعر بأن أحداً ما يكمن لي خلف تلك الأبواب المغلقة أمامي، راودني احساس غريب؛ كأن أحدهم ضربني من الخلف على رأسي لأسقط على الأرض وأرى من خلال عيوني الناعسة بنصف اغفاءة كيف ينشر الظلام عباءته على العراق، وكيف يعود إلى ديارهم؟ المشيعون الذين حملوا جثث أصدقائهم أو أهلهم إلى النجف، وكيف تنسكب الوحشة والكآبة من وجوههم؟ وكيف يستقبل أهل الميت التابوت الذي عاد هذه المرة فارغًا؟ وتخفت أصوات الموجوعين بفقد أحبتِهم، ويحل الليل بهموم أعظم تملأ سماء العراق لبضع دقائق، ثم ما أن يضع العراقيون رؤوسهم على الوسائد حتى تتسرب إليهم عبر النوافذ المفتوحة و الشبابيك لتستقر برؤوسهم وتجعل حواسهم تستطيل وتتمدد لتعبر بهم المسافات فتجعلهم يرون ما لا يرونه الناس، وتحسسهم بما لا يشعر به البشر، حتى تختلط عليهم الرؤية وتجعلهم لا يفرقون بين الوهم والواقع، وبين الحلم واليقظة ثلاثون عامًا فيها كان شجر النخيل يصفّرُ وجهه على العراق، والعراقيون يتهمون حشرة الدوباس ويغفلون عن المقابر الجماعية، ثلاثون عامًا والأهوار تجف وتختنق كل ليلة والعراقيون يتهمون دجلة والفرات بالتقصير

ويتناسون عقوبة تجفيف الأهوار، ثلاثون عامًا والعراق ينزف والعراقيون يتهمون بعضهم البعض، ثلاثون عامًا والعراقيون جزء من هذا ولا يعنيهم منه شيئًا، ثلاثون عامًا وأنا ضائع في زوايا مشبوهة، أعيش وسط أناس مشبوهين، أحاول كل يوم اكبتُ ذلك الهمس الخافت الذي يخترق أذني كل غروب، حين أتذكر التوابيت التي عادت إلى اهلِها فارغة، من الذين قتلتهم؟ ثلاثون عامًا وأنا أنام ويداي وثيابي ملطخة بالدماء المتخثّرة، وأصحو صارخًا حتى يبحّ صوتي.

لا اعرف أن الأمر كان حقيقة أم خيال واهم، إلا إن ذلك الشرود الذهني حملني بعيدا بغير ميعاد، ثم ارجعني كمن استفاق من حلم بارد، كنت في دوامة غريبة، حاولت أن أتخلص من كل تلك الأفكار والظنون، لما نبهني أحد المجاهدين عندما سألني عما سنفعل في الدقائق القادمة، صحوت فجأة وكان كل شيء في مكانه المعتاد، تمركز المجاهدين وانبطاح النصرانيين والهلع والخوف المسيطر على وجوههم، أخبرت الشاب الذي سألني عما سنفعله، بأن يبحث لنا عن ممرٍ آمن للخروج، في تلك اللحظات رأيت الخوف والقلق يتسلل إلى وجوه جنودي، وأصبح ذلك واضحًا للنصرانيين الذين كنا نحتجزهم كرهائن، كان عليَّ أن افعل شيئًا ما حتى استرجع الثقة في وجوه جماعتي، كنتُ أعرف ما عليَّ فعلهُ صرختُ على بلسم بأعلى ما عندي من صوت فألتفتت يمينًا فرأت أحد المجاهدين الذين أعطيتهم إشارة خفية؛ يسدد بندقيته عليها، لم تفعل شيئاً ولم تتفاجئ، بل دارت وجهها صوبي فوجدت سلاحي مصوباً نحوها، تجمدتْ في مكانها بين رشاشتين بفوهتين مصوبتين نحوها، تمكنتْ في اللحظة الأخيرة من رفع يديها إلى الأعلى قبل أن أطلق عليها وابلاً من الرصاص نخر صدرها، تبخرت في

مكانها، بينما تخطتها بعض الطلقات واستقرت في جسد الجندي الذي صوب سلاحه عليها، فأنفجر الحزام الناسف الذي كان يرتديه ذلك المقاتل محدثًا دوياً وضوءاً قوياً، ظنّ بسببه بعض النصارى أن يوم الحساب قد حان، فغطى بعضهم وجهه بيديه.

الفصل الخامس

المشهد الثالث

الإرهابية بلسم

إدعيت وقوفي معه ولكني كل ما حاولت تصويب سلاحي بوجه أحد الحاضرين أجدني أطلقها بوجه أحد رفاق أبي قُتادة حتى قتلت ثلاثة منهم دون أن يعلم من الذي يطلق النار، فأنا لا أنكر فضله بتعليمي فن الإصطياد، طاردنا بعضنا حتى ضعفت قدراتي في التصويب حين وجدته يرمقني بنظرات حائرة، قررت لحظتها التخفيف من جنوني، اقتربت منه هامسة:

- ما بالك تترك جنودك لتركز أنظارك علي؟
- أنتِ الجندي الأول، وإن أفَقدكِ أفقد كل الجنود.
- اطمئن فالكثير من الكفار في مرماي وها أنا أصفيهم الواحد تلو الآخر، لن يتمكن أحد مني.
- أخشى إنك ستكونين في مرماي أنا، أتمنى ألا افعل ذلك.
- كل هذا لأني لم أجد عائشة! أنا متأكدة إنها قد لاقت حتفها عندما فجرنا تلك القلاية، ألا تنظر هناك الكثير من الدماء النازفة.

تركني وذهب كهر هائج يشير لهذا ويأمر ذاك ولم يتوقف إلا بعد إن فجر أحد رجاله نفسه في مؤخرة المذبح، تناثرت أشلاء بعضهم واصطبغ الباقي بالدماء، نظرت إلى وجه سارة التي مازالت محتجزة بين يديه فقد ازداد اصفراراً ويداها أخذتا ترتخيان حتى سقطت قبضتها عن يد أبي قتادة، ثقل وزنها أصبح يمثل عبئا عليه، رماها قائلاً:

- لا فائدة من أن أحتمي بجسد بالٍ.

أمسكت بجسدها ووضعت يدي على وجنتيها لم أعد أشعر بحرارتها المعهودة أصبحت كالثلج، تلك الوجنتان اللتان شعرت بدفئهما واللتان أدخلتا إلى قلبي الطمأنينة فقدتا رونقهما لبشاعة الحياة وقسوة البشر،

ركنتها على جنب لعلي أتمكن من تخليصها، ورحت أكمل مسيري خلف أبو قتادة، رأيت الناس يتجمعون في غرفة مغلقة وأصوات القنابل ترج الكنيسة بين الحين والآخر، فهم لن يتركوهم أحياء، لن يتركوا فرصة صغيرة للعيش بسلام، عدت لسارة لعلي أساعدها لكني وجدت جسدها يسحب من مكانه، هرولت نحوها وجدتُ شخصاً يرتدي زياً عسكرياً يسحبها برفق، صرخت دون أن أعي أني أخطأت بهذه الصرخة، فصرختي لم تكن في صالحها، انتبه أبو قتادة ورجاله، أطلقوا الرصاص بشكل عشوائي نحو سارة والجندي تمكن من التراجع خلف الباب ولكن سارة أصبحت كدمية مليئة بالثقوب مصطبغة بلون احمر قاتم.

سقطتُ على الأرض لهول ما رأيت، ماذا فعلت لما صرخت؟ أنا السبب، سارة ذات الوجه البريء والقلب الطيب أصبحت تحت نيران الإرهاب ماذا افعل بحالي؟ انسحبت وأنا أجثو على ركبتي حتى وصلت إلى مكان الجندي، لم يضيع من وقته فقد جرني من عباءتي كاتماً على أنفاسي ليستولي على السلاح الذي كان بعهدتي، لم أتفوه بكلمة تمنيت أن يطلق علي رصاصة ولو واحدة لتخلصني من الحياة التي أجبرت أن أعيشها، ولكنه رفعني من على الأرض وأخرجني أمام أبي قتادة:

- لن أطالب بإخراج الأبرياء بدل زوجتك لأني متأكد إنها لا تهمك بشيء، ولكن سأجعلها تكون في مرماك ليرى باقي رجالك كم هم مخدوعون بقائدهم.

توجهت أنظاره نحوي قائلاً:

- هل تعتقد أني لم أرها وهي تسلم حالها لك؟، ولكني تركتها تزحف إليك لأتمكن من رؤيتك.

- لا أستغرب فهذه من صفات الخونة، تجعل من أقرب الناس إليك طعماً لأعمالك البشعة، وأعلم أيضاً بأنك تراها وهي تقترب مني.

التفت إليه هامسة:

- ماذا تفعل أنت تضيع الوقت؟.
- ليس من شأنك.

في هذه الأثناء رأيت جنوداً آخرين قد تمكنوا من التوغل إلى داخل الكنيسة، وأصبح الصراع محتداً أكثر بينهم وبين رجال أبي قتادة، حينها فهمت أنّه مجرد وقت لتمكينهم من الدخول دون مواجهة مسبقة.

عدت بأنظاري إلى أبي قتادة الذي كان يصوب رشاشته نحوي، فلم أرَ في عينيه غير الكره والحقد وتبشيري بموت محتم، رفعت يدي إلى الأعلى راكلة الجندي لأبعدهُ عني، إطلاقة خرجت من الفوهة كانت أسرع من لمح البصر استقرت في جسدي بل اخترقته لتفجر أشلاء من كان يقابل أبا قتادة ويبارزه، أي منهم سيقتلني أولاً؟ لم اشعر بوجع، فقط ماء شديد السخونة بدأ ينحدر على قدمي وظلام دامس أطفئ نور عيني.

الفصل الخامس

المشهد الرابع

الرائد باسل

الأنثى ذات الوجه الشاحب والرداء الأسود، فقدتها، ها هي طريحة الأرض، الدماء تصبغ وجنتيها الشاحبتين، أي نوع من البشر هذا، مددتُ يدي لعلي أتمكن من رفع جسدها من الأرض، لكني لم أتمكن كل شيء حولي يملأه الدم لم أعد أرى كفي، سلاحي على الأرض وأنا لا أستطيع حمله، كنت قد عاهدت عائشة على إنقاذهم ولكني ها أنا اخلف عهدي، هل هذه أمنيتي الثالثة التي لم أستطع تحقيقها؟ سارة ترقد ووجهها مازال يشع بالنور، وبلسم ترقد ووجهها أصبح يشع بالنور كذلك ولكنه يحكي الكثير عما مر به من ظلم وجور، ليت عائشة تخرج من جحرها وتصور ما أرى من ظلم، ناديت بصوت خافت:

- عائشة _ عائشة.

لم أسمع جواباً، وضعت رأسي على الأرض، شعرت بدوار شديد، الخدر توغل إلى جسدي، دخان الإنفجار بدأ يغطي على المكان لم أعد أرى شيئاً سوى صورة أطفالي وهم يلعبون ويتمسكون بأكتافي كأنها أرجوحة لهم، صورة تكررت كأني في قاعة عرض سينمائي، زوجتي تقترب تمد يدها لي لكني لا أستطيع مد يدي لها كلما نظرت وجدت كفي تملأه الدماء، هي تقترب وأنا اصرخ ابتعدي _ ابتعدي، لم اشعر إلا وجسدي يحمل ولكن إلى أين؟ صوت صافٍ يهمس:

- أرجوك لا تمت، فأنا كنت بحمايتك.

حركت رأسي قليلاً، لم أكن أحلم، إن ما اسمعه كان حقيقة، هي عائشة ودموعها تتساقط على وجهي كالمطر، لم أتمكن من مواساتها فأنا في وضع أحتاج إلى من يواسيني، لم أتفوه بالكثير من الكلام فقط قلت لها:

- هناك وجهان يرقدان جنب بعض، أرجوك احتفظي لهما بصورة، فهما يمثلان النور والظلم.

احتضنتني بقوة وقالت:

- لا تبالِ، سأتمكن من تصوريهما، فقط كن بخير.

لم ارغب بإغلاق عيني، فهذا يعني أني استسلمت، تحاملت على نفسي وحاولت النهوض:

- ماذا تفعل؟
- أرجوك أعينيني على النهوض، أريد أن أقاوم لآخر رمق، اقلها أموت وأنا متأكد أني تمكنت من أبي قتادة.
- لن تستطيع، ألا ترى إن كفك مقطوع.
- لا يهمني، أستطيع تصويب البندقية بدون أن استخدم كفي الأيمن.
- وكيف ذلك؟
- فقط أعطيني هذا الحزام الذي تعلقين فيه الكاميرا، وحاولي ربطه بين الزناد وساعدي.
- لا، لا، دعها لي أنا من سأصوب البندقية بوجه أبي قتادة.
- لن تتمكني، فهو ليسِ في مرماكِ إضافة إلى ثقل البندقية عليكِ.
- لا أرجوك ثق بي.

- أرجوكِ، أريدك أن تبقي على قيد الحياة، فأولادي بحاجة إلى مرشدة مثلك.

استسلمت أخيراً لما طلبت منها وربطت الحزام بين ساعدي الذي أدماه الألم والزناد، قربت إحدى الكراسي لأضع عليها البندقية ثبت ظهري على كفيها، ركزت نظري على تحركات الفأر الشارد بين الناس، فهو يتحرك كالجائع الذي يبحث عن طعام يشبع به جشعة وتمرده، وبين لحظة وأخرى وجدته يقف في مرماي، لم أتوانَ عن سحبي للحزام حتى انطلقت طلقات عدة باتجاه أبي قتادة، اخترقت صدره العفن، لم يصدر بعدها أي صوت، عم هدوء غريب قمت من مكاني مقترباً من جثته وإذ به يفرغ بندقيته في صدري، كانت كل طلقة تخترق جسدي تجعلني أصرخ:

- تباً لك، أنت شيطان رجيم.

سقطت فوق جسده، لأغرز خنجري بيدي اليسرى في فخذه، هاج كالثور ورماني على الأرض زاحفاً بعيداً عن مكان عائشة، خرجت من مخبئها لا تقوى على شيء حتى صرخاتها ابتلعتها، رمقتني بنظرة باكية مددت يدي لها لأسلمها البندقية، رفعتها وقالت:

- سآخذ بثأرك حتى لو كلفني حياتي.

الظلام ابتلعني، لم اعد أسمع أو أشعر، حتى أصوات أطفالي توقفت عن مناداتي، وها أنا أضع رأسي بالقرب من رأسيهما.

الفصل السادس

المشهد الأول

الصحفية عائشة

يسبقه ظلامه بخطوة محدثاً فجوةً بكل رقعة يعدوها مفترساً بمخلبيه سورها ليحل عليها لعنته، أبت النفس أن تبتلع، انتفضت وانتزعت الروح، ولدت من جديد، أنبت الزجاجة بقعر قلبه مرة وما كان يتضاءل إلى أن طعنته بثانية وأخرى، تشققت أصابع يدي بوحشيتي تلطخت بلون منكره، تراءى الظلام إلي ضاحكاً:

- قتلت للتو إنساناً.

لم يكن القتل اختياراً، بل شبح يحتضنه الظلام، يتعايش بين ثغرات الضعف ليخلق له هيئة لا تشبه الإنسان ينادي بالرحمة لكنه هو الشيطان.

رميت بقطعة الزجاج بعيداً نهضت من على صدره الجاثم، وقد احتلني الظلام مكبلا أرسغي بسلاسل دمائه متراجعة للخلف من حيث أتيت محاولاً أن يزفني كعروس، بل قربان يسحب حيث مذبحه، وفي مدخل باب الغرفة سطع بعيني بريق ساعته اليدوية، خفت من الإقتراب ولم يكن لي سوى الإنقياد بقدمين متهاويتين ملؤهما الموت للتخلص من خطيئتي الملقاة هنا:

- إنّه هو، أيعقل هذا؟!

لم استطع الرؤية إلا إني استجمعت قواي لسحبه إلى الداخل بعض الشيء، تفقدته وأنا ابحث عن بصيص الحياة فيه، رأيت أنّه قد سلب الذراع بعد إن نبذت الخضوع وجهرت بالفضيلة، بعد إن قُتلت واقتادني الإنتقام ليكبلني قيود الجريمة.

تمتم قليلاً وأنفاسه متراخية ضعيفة يصارعها الأجل، شهق الأمل بصوته من جديد، ركنتهُ على الجدار قليلاً وجثوت لأسند رأسه على ركبتيه، لم يكن يريد

الإستسلام ولم أكن أنا ارغب بالنجاة والخروج وحيدة، فالنجاة لم تكن يوماً انتصاراً لأحدهم.

ساندته لحمل السلاح، كانت هذه الخطة خطتنا الأخيرة للقضاء على أبي قتادة، نقلته إلى مقدمة الممر، حللت رباط كاميرتي لففت ساعده بالدموع وتحملت الكنيسة عاتق ربط عقدته بسلاحه، عدت أدراجي للخلف قليلاً بعد أن ودعته، إنتظرت إلى أن تحين فرصتي وأعلن ثورتي، أطلقت بندقيته رصاصاتها الحارقة سكنت إحداها صدر أبي قتادة، همد جثمانه، وما إن اقترب منه الضابط حتى انقض عليه وقتله.

صرخت لم يكن هناك مجال للإختباء حملت السلاح ووجهته صوبه، نظر أبو قتادة إليَّ نظرة ماكرة! إحمرّ بياض عينيه وقال:

- ها أنت إذا.
- نعم إنها أنا، ألا يسعدك ذلك.

كلانا ضغطنا على الزناد، تطاير الشرار بفوهة البندقية كانت حارقة لكلينا، أغلقت عيني لأحلم بحلم جديد.

الفصل السادس

المشهد الثاني

أبو قتادة الإرهابي

في نعِي أمي شجن آسر، يجبر النساء اللواتي يجتمعّن حولها على البكاء من غرارِ قلوّبهن، فتربض دموعهّن من أول بحّةٍ على الخدود، فخسارتي بموت أمي وأخواتي كبيرة، لذا لم أجد عزاءً يليق بي؛ غير تجربة النعّي التي صرت أمارسها كثيرًا قبل أن أنام، الأمهات لا غيرهن من دفع ثمنَ حزني وغضبي، هنَّ وحدهن من يذرفنَّ الدموع في ليلٍ موحش بارد حدّ النعي، على أولادهن الذين يقتلون بعمليات إرهابية كنت أنا من يدبرها، هنّ وحدهن من سيلاقي مصيرًا قاسيًا، أسوأ ما فيه إنهّن لم يخترنه، ولم تكن لديهن القدرة والقوة على ردهِ، فأبشع ما في جرائمي إنها كانت باسم العشق الأمومي.

كانت الكنيسة تشبه البالون الكبير، تشهق بالدخان الساخن تارةً واخرى تزفر دمًا عبيطًا، كنيسة مزدحمة حدّ التخمة بالفجيعة، لم يعد لها من الوجود الذي ملؤه ترانيم وصخب مسيحي غير الموت وذعر المتعبدين الذين احتجزناهم داخل الكنيسة، في القاعة الرئيسة وسط الكنيسة تستطيع العين الإحاطة بكل ما يجري بسهولة، وأول ما يلفت النظر والحواس كلها قطع من اللحم وأربع جثث، واحدة رأسها مقلوب، إلاّ أنها كانت مألوفة بالنسبة ليّ، فالشال الملفوف حول رأسها، كنتُ قد اشتريته قبل يوم من تنفيذ المهمة كهدية لبلسم! وهناك شيء آخر مثير للرعب هو رائحة الفراق، فقد أثبت العراقيون أن رائحة الفراق حين تشذّ في مكان ما، يُقتل فيه مواطن صالح، لن تخبو قبل الأربعينية أبداً، فوجودها مرهون بقلوبٍ احترقت، فكل عراقي في داخل قلبه غابة ملتهبة، ويعرف في كل مرة يفقد فيها صديقاً أو حبيب أنها ليست الأولى ولن تكون الأخيرة، فمادام أنّه مكتوب على جنسيته

عراقي؛ فالقادم أسوأ دائماً، لذا ترى العراقيين أكثر حكمة من رجال الأرض جميعًا، فحين يسألهم سائل: لِمَ يحدث معكم كل هذا؟!؛ فيجيبونه:

– نحن العراقيين متهمون بأننا عراقيون.

بينما كنتُ أتابع تمركز قوات الشرطة التي طوقت الكنيسة من نافذة إحدى الغرف، نظرتُ إلى بغداد التي انبسطت بيوتها وشوارعها أمامي على مد البصر، فتراءى لي أحد ما وهو يخنقها بيديه، لا يسمح لهذه الحزينة الحلوة ولو لمرة واحدة بفتات من السعادة، أغلقت النافذة وعدت إلى ممرات الكنيسة الطويلة التي تشبه متاهة من الأبواب المغلقة، وقبل أن أصل إلى الإيوان الكبير الذي نحتجز به الرهائن، قبل بضع مترات، سمعت همسًا أو حركة غريبة خلفي، بدايةً ظننته لأحد جنودي، لكني ألتفت ولم أرَ شيئاً، غير كتل ملتهبة بدأت تخترق صدري بلمح البصر، وصوت فتق طبلة أذنّي، في تلك اللحظات وجدت نفسي ملقى على الأرض، وكانت المرة الأولى التي أحسست فيها أنّي أستطيع أن أرى نفسي وهي تصارع الموت بيدٍ معاقة، رأيتني رجلاً ليس واثقًا من نفسهِ، ينظر صوب غابتهِ التي خرج منها الآن، وقد بدأت ألسنة اللهب تلتهم أشجارها، وتخرج منها الآلاف من أشباح الفقد والحرمان والعزلة، وحقائب آمال وقلوب محطّمة، ولم يدرك إلاّ أنهُ كدْرَّ حياة الكثيرين من ضحاياه، فخلف أولاد أيتام وأمهات وآباء خنقتهم الوحدة وعذبهم الغياب، وطعنهم الفقدان، ثم أكلهم الحزن.

أطبق الظلام على عيوني، وصرت أرى بصعوبة، لمحت كائناً ينقض عليّ، لوهلة ودس ذلك المخلوق شيئًا حادًا بفخذي، اشتعل فيَّ ألم لا أستطع أن أصفه، إلا إنه يشبه تلك الحرقّة التي تصيب الأمهات الجنوبيات عندما يشاهدن توابيت أولادهن وهي ترفع وتشدّ على سيارة الستاركس التي ستتجه

بعد ثوانٍ إلى مقبرة النجف، حرارة الطعنة جعلتني انتفض بكل ما تبقى لدي من قوة أبعدت ذلك الكائن عن جسدي وزحفت قليلاً حتى مسكت بسلاحي، في تلك اللحظة تحديدًا كان الخنجر مازال منتصبًا في فخذي، إلا إنّي تحاملت على الألم وفتحت عيوني لأرى فتاةً كان الشر يتطاير من عينيها، ركز كل منا في عين الآخر، دون أن نتظاهر بأننا نخفي ما نحس به، لفحتني نسمة باردة، ربما لتخطرني بأن هذه المرة تختلف عن سابقاتها، اجتمعت كل ذكرياتي في صورة واحدة أمامي، مجموعة كبيرة من الذئاب تنتظرني أغمض عيني حتى تنقض على جسدي، وأجراس كنيسة تقرع، وأذان مسجد، صوتان يتناوبان على مسامعي، وجيش من الأمهات يمسكنَ صور أولادهن الشهداء، بعد تلك الصور الكثيرة استنتجتُ أن ذلك اليوم هو آخر يوم في عمري، وأنا اجتاز كل تلك حقول الألغام من الذكريات المفخخة، ضغطت على زناد البندقية الموجهة صوب الفتاة ومعها رأيت مجموعة من الكتل الملتهبة التي اخترقت جسدي قبل قليل ها هي عاودت لتخترقه مرة ثانية، كأمٌّ لطفلين شيِّعت الأول، ومات الثاني برصاص المشيعين.

الفصل السادس

المشهد الثالث

الصحفية عائشة

حقيقة الموت منذ الأزل هي واحدة، تبدأ بخروج الروح من الجسد، لكن ما لا تدركه أنفسنا بأن الإحتضار يصوغنا بأشكال مختلفة، يُخلق بقعر صراع ذواتنا ولادة لا متناهية، يُقلب أرواحنا آلاف المرات لأجل ذلك الموت المحتم.

تحرر هدب عيني من خيوط نسيج العنكبوت ذاك الذي توسط بؤبؤها؛ راق له السكون فيها بعد إن أغلق نوافذ أجفاني حاجبًا شروق الشمس عني ظناً منه أنّه قد تعشعش أخيراً متناسياً إن بيته هذا هو مقلتي، وها أنا قد أفسدت نواياه الواهنة معانقة نور الحياة مجدداً، ولم أكن بمفردي، بل برفقة زوجي وولدي علي فلذة كبدي، نقف أمام أسوار الكنيسة الأمر أشبه بابتسامة رضيع يرى النور.

أرى جميع من تركتهم خلفي راقدين ها هنا بسلام يلوحون بأيديهم إلينا كان جلياً أنهم قد ترقبوا قدومنا إليهم منذ ذلك اليوم الذي مضى عليه أسبوع كامل واختتمته بزيادة يومين فخلقت ولادتي الثانية، نظرت إلى كل شيء وأنا امسك بيد زوجي وعلي بقوة لم ارغب بإفلاتهما بعيداً عني مرة أخرى، كأن ما حدث قد حدث بالأمس في كل خطوة أخطوها داخل الكنيسة أرى بأن احدهم ترك صرخاته بصوت أجراسها، عند المقاعد من نقش آخر ابتسامة له، وهناك على الجدار أرى رسوماً قد خطت بلون أحمر يوحي بشكل نهاياتنا، وفي تلك الغرفة باب قد قلعته مناجاتنا وليس قنبلة يدوية.

بذلك الممر قد كنت أنا، هناك حين أطلقت آخر الرصاصات على أبي قتادة ظننتني فارقت الحياة حين اخترقت إحدى رصاصاته كتفي جثوت بجسمي

وأغلقتُ أبواب الذكريات، اختزلتها جميعاً بعيني خشية فقدانها بعد رحيلي، لكن هناك من انتشل سقوطي ورفعني من على الأرض، كثيرة هي الأصوات التي سمعتها أثناء رفعي فهل كانت أصوات الموتى آم هو صوت مساعدي احمد أو بلسم لا بل ربما صديقتي سارة، لحظة قد يكون صوت زوجي وولدي؟ اشتد طنين سمعي لم أستطع وقتها التمييز أيا منهم كنت اسمع حين نقلت إلى سيارة الإسعاف وبشيء من الوعي قليلًا، علمت بان القوات الاتحادية ورجال الشرطة والجيش بل الكثير من المواطنين الذين هرعوا لنجدتنا، وقد تمكنوا من اقتحام المكان وخرجوا بنا من جوف ذلك الوحش الكاسر.

قضيت أيامي الأولى في المشفى والألم يعتصر جسمي وقلبي وعقلي لم يكن آلماً جسدياً بقدر ما هو وجع يتملك روحي حول ما حل بالآخرين في كل مرة يزورني فيها أحد من أهالي الضحايا ويسألني عن ذلك اليوم المشؤوم كنت غالباً ما أتظاهر بأني متعبة ونائمة ولكن حقيقة الأمر كنت أخفي دموعي تحت وسادتي بأي حجة سأختلقها لأجيبهم بها، بم أحدثهم؟

لم يتركني أحد من أهلي أو ابني، صديقتي نور التي شكرت الله كثيرا لكونها لم تخض ما قد خضته في ذلك اليوم كانت تحد من فزعي أثناء نومي وانهياري المفاجئ بين الحين والآخر.

في اليوم الرابع زارنا قائد العمليات الخاصة وهو يزف البشرى إلينا بأنه قد تم إصدار وثيقة إعدام بحق التنظيم الإرهابي بقيادة أبي قتادة الذي لقي حتفه على يدينا أنا والبطل باسل، عرفت اسمه فيما بعد، لم ينتابني الفرح وقتها ولكنني شعرت بأنها العدالة، في مجتمعي ليس هناك ما يطفئ لهيب دماء

الشهداء سوى الثأر لهم ربما ليست تلك هي العدالة الحقيقية ولكنها الشيء الوحيد الذي يخمد جمر قلوبنا.

وأثناء ذلك حسمت أمري بالخروج من المشفى والعودة لمزاولة العمل وإكمال ما بدأته، بشكل أو بآخر إن ما نتجاهل وجوده أو نتركه في الخلف خوفاً من مواجهته سوف ينتظرنا مستقبلاً.

حضرت اليوم لأجل السبق الصحفي ولكي أوقد لروحهم الزكية شموعاً تنير لهم مشوار رحلتهم الطويلة وأنا أوقد الشموع وقفت بجانبي فتاة نحيلة قد دفنت الدموع عينيها، بيدها اليمنى خاتم للخطوبة ولمحت بيدها الأخرى صورة صغيرة انتابتني الغصة حالما أمعنت النظر فيها كانت صورة أحمد المصور، ربت على كتفها قائلة:

- **لقد كان بطلاً.**

انتهت بعون الله

رواية مشتركة من قبل الكتاب

ختام الميالي: بشخصية الراهبة سارة

هدى حسين: بشخصية الصحفية عائشة

شيماء نجم عبد الله: بشخصية الضابط باسل و الإرهابية بلسم.

مهدي المبدر: بشخصية الإرهابي أبو قتادة.

تنظيم وفكرة: الأستاذ منير الكلداني

لوحة الغلاف: للرسامة إسراء سامي